تطور طقوس الحداد الشيعية في العراق الحديث
طقوس زيارة الأربعين

فرج الحطاب*

ملخص البحث

يزعم هذا البحث[1] أن طقوس الحداد التي يقيمها شيعة العراق بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوماً على استشهاد الحسين (زيارة يوم الأربعين)، ترتبط بعلاقة مهمة مع حياة الفرد أو الجماعة، وعلى مستويات متعددة مثل المستوى الديني، الوجداني، الاجتماعي، السياسي، والنفسي. وإذا كانت قوة تأثير هذه الطقوس على شيعة العراق تظهر بوضوح في مستوى ما أو أقل في مستوى آخر، إلاّ انها في النهاية تبقى طقوساً ذات أثر واضح في تشكيل الحياة الشيعية العراقية بأكملها. كذلك يمكننا أن نرى، في طقوس الحداد هذه، تداخلاً كبيراً بين ما هو ديني وما هو اجتماعي، وما هو سياسي وما هو نفسي. الأمر الذي يعطي مؤشراً على أهمية هذه الطقوس، ودورها الحاسم في بناء الفرد والجماعة عند شيعة العراق. إن هذه العوامل والأفكار تقودني إلى الجدل، في هذا البحث، بأن طقوس الحداد التي يمارسها شيعة العراق في زيارة الأربعين تشارك بصورة مهمة في تفاصيل حياتهم وتساعدهم على إحداث تغيير في حالتهم الاجتماعية. كذلك تساهم هذه الطقوس في ظهورهم كجماعة واحدة، لها لغتها الرمزية المشتركة التي تميّزهم في محيطهم المحلي، وتوفر لهم فرصة التعبير عن وحدتهم وتكافلهم، كما تُظهر قوتَهم الجمعية أمام المخاطر والتحديات التي يواجهونها. ولذلك فإن هذه الطقوس تساهم في إعادة صياغة وصيانة وجودهم

الجماعي.

تمّت كتابة هذا البحث اعتماداً على متطلبات المنهج الأنثروبولوجي، التأريخي، والأدبي. وذلك من خلال دراسة إثنوغرافية للعتبات الشيعية المقدسة في العراق، واستغرقت عشرة أسابيع تقريباً، وشملت أهمّ الطقوس الشيعية التي مورست في العراق خلال شهري المحرم وصفر ١٤٣٣هجرية، وهو ما وافق نهاية عام ٢٠١١ وبداية عام ٢٠١٢ من التأريخ الميلادي، حيث كانت هذه الدراسة الميدانية جزء من إعداد رسالتي للماجستير في قسم دراسة الأديان بجامعة ولاية أريزونا الأميركية.

يعتمد هذا البحث على المنهج الأنثروبولوجي، التأريخي، والأدبي. وهو دراسة إثنوغرافية للعتبات الشيعية المقدسة في العراق، واستغرقت عشرة أسابيع تقريباً، وشملت أهمّ الطقوس الشيعية التي مورست في العراق خلال شهري المحرم وصفر ١٤٣٣هجرية، وهو ما وافق نهاية عام ٢٠١١ وبداية عام ٢٠١٢ من التأريخ الميلادي.

أولاً: المقدمة

أزعم بأن هذا البحث هو الأول من نوعه في الدراسات الأكاديمية سواء الغربية منها أو العربية لدراسة طقوس زيارة الأربعين في العراق حتى هذه اللحظة. فقد كان متعذراً على الباحثين إنجاز بحث واسع حول هذا الموضوع لأسباب كثيرة من بينها قلة المصادر، والمخاطر الكبيرة التي قد يتعرضون لها إذا ما أقدموا على مثل هذه الخطوة، إضافة إلى تنامي ظاهرة طقوس الأربعين واتساع المشاركة فيها بصورة كبيرة في السنوات الأخيرة وهو ما يحتّم على الباحثين من إعادة بحث هذا الموضوع اعتماداً على هذه المتغيرات الجديدة. فبينما كان نظام صدام يمارس أساليب العنف وقمع الحريات الشخصية ومنع مختلف المجاميع الأثنية والدينية العراقية من ممارسة طقوسها بحرية، كان النظام في الوقت نفسه حريصاً على منع إنجاز أيّ دراسة مهما كان نوعها، يمكن أن تكسر جدار العزلة التي فرضها على هذه المجاميع ومنهم الشيعة. وقد كان نظام البعث السابق في العراق يعتقد بأن الشيعة هم دوماً أعداء لنظامه ويشكلون تهديداً حقيقياً له، ولذلك فإنه كان بحالة صراع معهم منذ تسلّمه مقاليد السلطة في العراق عام ١٩٦٨ وحتى ما بعد سقوطه في عام ٢٠٠٣. وكان من بين أدوات هذا الصراع هو تهميش وتغييب شيعة العراق، وكذلك منع كلّ ما يتعلق بهم من دراسات أو بحوث. ولذلك كانت دراستي هذه لطقس يُعَدّ من أكبر الطقوس التي يمارسها شيعة العراق وأهمّها، هي الدراسة

الأكاديمية الميدانية الأولى التي تتناول هذا الموضوع، لا سيما بعد سقوط نظام البعث عام ٢٠٠٣. إن دراسة هذا الموضوع بصورة جيدة اقتضت أن أقوم بزيارة العراق عام ٢٠١٢ وإجراء دراسة ميدانية مستقلة، عن هذه الطقوس في مكان ممارستها، وكذلك دراسة كل ما يتعلق بها من ظواهر.

إن أغلب الدراسات السابقة التي تناولت طقوس الحداد التي مارسها شيعة العراق في مناسبتي عاشوراء والأربعين، تكاد تكون محدودة ولا توفر فرصة لفهم هذه الطقوس بصورة كبيرة في الوقت الراهن. فهي دراسات مضى على إنجازها عشرات السنين، وهي وإن كانت توفر جانباً مهماً لدراسة هذه الطقوس في بعض جوانبها، إلاّ أنها وبفعل الزمن والتغيرات الحاسمة التي حدثت بعد عام ٢٠٠٣، أصبحت أقرب إلى أن توفر جانباً من الخلفية التأريخية لهذه الطقوس، أكثر مما تعطي تحليلاً دقيقاً لها. ولا أدّعي هنا بأن هذه الدراسة قد حققت عنصر الكمال، لكنها تمثل جهداً مضافاً لهذا الموضوع، كما أنها قد تفتح الباب لاحقاً لدراسات مهمة قادمة، تتناول هذه الطقوس بصورة يناسب حجمها ودورها وتأثيرها.

تُعتبر طقوس الحداد المقامة بمناسبتي (عاشوراء) و(زيارة الأربعين)[٢]، لغرض إحياء ذكرى استشهادالإمام الحسين مع اثنين وسبعين من أهل بيته وأصحابه في معركة كربلاء عام ٦١ هجرية- ٦٨٠ ميلادية، من الطقوس الفريدة التي يمارسها شيعة العراق اليوم. إن قبر الحسين في مدينة كربلاء (١٠٥ كم جنوب غرب بغداد)، قد لعب دوراً أساسياً في نشوء هذه الطقوس وتطورها، إضافة إلى بروز دور كربلاء كمركز له حضوره التاريخي والروحي عند الشيعة بشكل عام والعراقيين بشكل خاص، بسبب تحول المكان إلى موقع مقدس ومهم لزيارات الشيعة، وكذلك موقعاً رئيسياً لاستذكار معركة كربلاء وإعادة إحيائها والتطابق مع أحداثها بصورة مادية ومعنوية. ويقوم ملايين من العراقيين الشيعة في كل عام بممارسة طقوس عاشوراء والأربعين وذلك بصورة جماعية، ويقومون بإحياء هاتين المناسبتين في ذات المكان الذي شهد معركة كربلاء التاريخية. وقد لعبت طقوس عاشوراء وزيارة الأربعين منذ بداية ممارستها في القرن السابع الميلادي، دوراً مهماً في حياة الشيعة العراقيين، وذلك بسبب ممارستها الجمعية التي ساعدت على خلق وإعادة انتاج هويتهم وانتمائهم المجتمعي المشترك. وهذه الدراسة ستكون مخصصة لبحث طقوس زيارة الأربعين فقط، أما طقوس عاشوراء فقد سبق وأن بحثناها بصورة واسعة ومستقلة في مكان آخر [٣].

أزعم بأن هذا البحث هو الأول من نوعه في الدراسات الأكاديمية سواء الغربية منها أو العربية لدراسة طقوس زيارة الأربعين في العراق حتى هذه اللحظة

إن طقوس الأربعين في هذا البحث تعني جميع الفعاليات التي تمارس

بمناسبة مرور أربعين يوماً على ذكرى استشهاد الإمام الحسين في معركة كربلاء، أي في اليوم العشرين من شهر صفر، الشهر الثاني في التقويم الإسلامي. ومن بين

إن طقوس الأربعين في هذا البحث تعني جميع الفعاليات التي تمارس بمناسبة مرور أربعين يوماً على ذكرى استشهاد الإمام الحسين في معركة كربلاء

أهم الفعاليات التي تمارس في طقوس زيارة الأربعين هو رحلة المشي على الأقدام لزيارة قبر الحسين، حيث يتوجه الزائرون، أفراداً وجماعات في هذه الرحلة التي تبدأ عادة بالمشي من منازلهم أو من أماكن أخرى (سيتمّ تناولها لاحقاً) وصولاً لمدينة كربلاء المقدسة. ويصل المشاركون من مختلف المدن العراقية إلى مرقد الإمام الحسين بأعداد كبيرة جداً وهم يقطعون مئات الأميال ليلتقوا جميعاً في كربلاء كلّ عام. وبالإضافة إلى طقوس المشي سيراً على الأقدام، فأن هناك طقوساً أخرى تتمّ ممارستها في هذه المناسبة مثل: زيارة الحسين في يوم الأربعين، استعراض مواكب الضعن، وكذلك استعراض مواكب اللطم وضرب الظهور بالسلاسل الحديدية بالقرب من مرقد الحسين. ومن بين أهمّ ما يميز طقوس الأربعين هو بروز حالة التكافل الاجتماعي بشكل واضح خلال مدة ممارسة هذه الطقوس، حيث يتبرع الناس بصورة طوعية بتوفير السكن والأكل والشرب وجميع الخدمات الأخرى التي يحتاجها الملايين من المشاركين في هذه الطقوس.

ثانياً: الإطار النظري لمفهوم طقوس الحداد

تكمن أهمية طقوس الحداد أساساً في كونها تمثل ردَّ فعل طبيعياً ملازماً للإنسان، لأنها حالة متجذرة فيه، وتشكل جزءاً من طبيعة البناء النفسي لديه. وينتج الحداد عموماً بسبب الحزن على فقدان فيزيائي أو روحي لأشخاص أو أشياء يرتبط معها الفرد بعلاقات مميزة، وبذلك يكون الفقدان هو العنصر الرئيسي الذي تتولد عنه عملية الحداد، وبدون هذا الفقدان لا يمكن للحداد أن ينوجد. ويُعرِّف عالم النفس سيغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) في بحثه المسمى «الحداد والمنخوليا Mourning and Melancholia» (١٩١٧)، بأن الحداد هو «عادة رد الفعل إزاء فقد شخص محبوب، أو إزاء فقد شيء مجرد ما حل محل الشخص، مثل الوطن أو الحرية أو مثل أعلى، وهكذا».[٤] وعادة ما يصاحب هذا الفقدان مشاعر من الحزن تختلف حدته بحسب مكانة الشخص الذي تم فقدانه، وأيضاً بحسب الاستعداد النفسي للشخص الذي سيعاني أثار هذا الفقدان.

وسواء أكان الفقدان نتيجة الموت أو بسبب الغياب لأيّ سبب آخر، فإن الإنسان سيتعرض لحالة من الألم الناتج عن مشاعر الحرمان والاشتياق. وهو ما يحصل، بحسب فرويد، بسبب سحب (اللبيدو lipido) المرتبط مع الشيء المحبوب، والذي سيلاقي في البدء مقاومة ما، لأن الشخص الفاقد لا يرغب في التنازل عن وضع

هـذا اللبيدو حتى مـع وجود البديل. ولذلـك تظهر نزعة قويـة لـدى الشـخص الفاقد إلى تـرك الواقع والتمسـك بالموضـوع المفقـود مـن خـلال «اضطـراب عقلـي هلوسـي». إلاّ أن الحداد يلعب دوراً حاسـماً خلال هذه المرحلـة، حيث سـيكون لـه الـدور الأهم في مسـاعدة الفاقـد بالعـودة إلـى واقعـه، وذلـك لأن «الأنا تصبح حرة وغيـر مكبوتـة»[٥]. وإذن فإن طقـوس الحـداد، بحسـب فرويـد، هـي ظاهـرة صحيـة وتنتـج عـن مراحـل عديـدة مـن تفاعـل مشـاعر الحـزن عنـد الإنسـان، وإن الغـرض من هذه الطقـوس هو العمل على تنظيم وممارسـة مظاهر الحـزن، وبالتالـي جعل الإنسـان أكثر قـدرة على تحمل الخسـارة، وكذلك إعداده نفسـياً من أجل العيش ضمن ظروفـه الجديده. ولهـذا فإن عمليـة الحداد تأتـي لتوفر وسـيلة للإفلات مـن تأثير الفقـدان وهيمنتـه المحتملة، وأيضاً كوسـيلة لاعتياد هذا الفقـدان والعودة إلى الحالة الطبيعيـة السـابقة، أي إلى حالة ما قبـل الفقدان. ولا تتم هـذه العـودة إلا عـن طريـق عمليـة طويلـة ومعقـدة من طقـوس الحـداد التي تكـون فـي النهايـة عامـلاً إيجابياً وطبيعياً في التخلص من آثار الخسـارة. واذا كان الحداد قد يبدو، في شكله العام، أحد الحالات التي ترتبط كثيراً بعلـم النفـس والتحليـل النفسـي، إلا أن ذلـك لا يلغـي أحياناً ارتباط الحداد (وبعض الفعاليات المرتبطة به مثل النـواح والاحتفـال بالذكرى السـنوية) ونشـوئه وتطوره بضرورات اجتماعية أو سياسية أيضاً. بل ويكون الحداد أحياناً نتاجاً فعلياً للضرورات الاجتماعية والسياسـية في مجتمعات معينة.

إن طقوس الحداد، بحسب فرويد، هي ظاهرة صحية وتنتج عن مراحل عديدة من تفاعل مشاعر الحزن عند الإنسان، وإن الغرض من هذه الطقوس هو العمل على تنظيم وممارسة مظاهر الحزن، وبالتالي جعل الإنسان أكثر قدرة على تحمل الخسارة

بينما يرى عالم الاجتماع أميـل دوركايـم (١٨٥٨-١٩١٧) بـأن الحـداد ليـس تعبيـراً عـن حالـة الفـرد النفسـية، كمـا هـو الحـال عنـد فرويـد، وإنمـا الحداد هـو اسـتجابة للتقاليـد التـي يفرضهـا المجتمـع «الحداد ليس حركة طبيعية للمشـاعر الشـخصية المجروحـة بفقـدان أو خسـارة قاسـية، بـل هـو واجـب تفرضـه المجموعـة. إن بكاء أحدهم ليـس لمجرد إنه حزين، بل بسبب إنه اُضطر أو أُرغم على البكاء. إنه موقف الطقوس التـي تحتم على الأفراد تبني اختيـار العرف، بل هو، إلى حد كبير، الاستقلال عن حالته العاطفية.»[٦] ان دوركايم حاول دوماً أن يعزو الأهمية الأساسـية للقوة التي يمثلها المجتمـع، وليـس لتلك التـي يمتلكهـا الفـرد. إن فكرة المجتمع بالنسـبة إلى دوركايم، هي أساس كل توجه في الكون، وإن المجتمع (وليس الفرد) هو القادر أن يجيب على الأسئلة المهمة المختلفة في عالمنا.

إن الحـداد مـن وجهـة نظـر دوركايم هـو طقس آخر

مـن تلك الطقوس التي ترفـع من حيوية المجتمع. حيث يصبح فقدان أحد أفراد الجماعة مسـألة مؤثرة تساهم في جمع الأفراد مع بعضهم بعضاً من أجل توثيق علاقاتهم، وكذلـك ربطهـم بحالـة عاطفيـة وفكرية مشـتركة، وهو مـا سيسـاعدهم على تحريـر مشـاعرهم و تحقيق بعض السلوى كنوع من التعويض والمكافأة عن الشخص الذي فقدوه.[٧] وعلى هذا الأسـاس، فإن السبب وراء ممارسة طقـوس الحـداد بالنسـبة لدوركايـم هوسـبب اجتماعي بالدرجـة الأولـى وليس سـايكولوجي، كمـا أن طقوس الحـداد الجماعيـة تصبـح مصـدر قـوة للجماعة،لأنهـا تبرهـن علـى قوة هـذه المجموعـة وتماسـكها وتحديها للصعوبات التي تواجهها في فقدان أحد أفرادها. إن هذا التواصـل الوجدانـي فـي طقـوس الحـداد، يسـاهم كثيراً في حركة وبنـاء المجتمـع ويعبر في الوقت نفسه عن ان الفرد ليس سـوى جزء من هذا المجتمع الذي يشـترك فـي الحزن من أجـل تجاوز الخسـارة والفقدان.

يرى دوركايم أن: «الحداد ليس حركة طبيعية للمشاعر الشخصية المجروحة بفقدان أو خسارة قاسية، بل هو واجب تفرضه المجموعة. إن بكاء أحدهم ليس لمجرد إنه حزين، بل بسبب إنه اُضطر أو أُرغم على البكاء. إنه موقف الطقوس التي تحتم على الأفراد تبني اختيار العرف، بل هو، إلى حد كبير، الاستقلال عن حالته العاطفية.»

ويقدم لنا عالم الأنثروبولوجيا والفلكلور فان جينيب Van Gennep (١٨٧٣-١٩٥٧)، إسـهامة مهمـة لفهـم طقوس الحداد كونها جزءاً من نظريتة «طقوس العبور»، التـي ناقش فيها عملية الانتقال من طـور حياتي إلى آخر وذلك من خلال ثلاثة أطوار رئيسـية هي الفصل والعزل والتأسـيس. إن جينيب سـعى في دراسـته هذه إلى تأكيد أن هذه الطقوس ما هي إلا طقوس أساسـية وراسخة في بنية المجتمع، ولذلك قـام بالتحقق من صحة التغييرات التـي تحصل في الحالة الاجتماعية للفرد، في مناسـبات الـولادة، الطفولة، البلـوغ، الزواج، المـوت وغيرها من أنواع طقوس العبور الأخرى.

إن جينيب يعتقد بأن مراسـيم المأتـم أو الجنازة على سـبيل المثـال، تسـاعد علـى الاتحاد مـع العالـم الآخر وتنظـم عملية بنـاء الحداد للإحيـاء. كمـا أن الحداد هو «فتـرة انتقاليـة transitional للإحيـاء، حيـث يدخلـون إلـى هذا الحداد من خلال طقـوس الفصل seperation، ثم يحصلون فـي نهاية الطقس بعودة تكاملهم reintegration الـذي يظهر على هيئة مجتمع متجانـس.[٨] إن وظيفة الحـداد عنـد جينيـب هـي مـن أجـل إعـادة الاندمـاج والتكامـل للمجتمـع، والتـي تتم من خـلال ممارسـة عمليـات طقـوس الحـداد. كما أن المسـاهمة الفعلية في ممارسة طقوس الحداد، سواء في مراسـيم دفن المتوفى أو التوقف عـن الحياة الاجتماعية الاعتياديـة خلال فترة الحداد، تظهر بأن المجتمع بأكمله يتأثر بالحياة والموت على حد سـواء، وأن هذه الطقوس

هي محاولة في صيانة الهوية ضد مخاطر التغيرات الحاصلة، وهو ما يساهم في النهاية بدعم وتشكيل الهوية الجماعية عند المشاركين في طقوس الحداد.

أما فيكتور تيرنر Victor Turner (١٩٢٠-١٩٨٣)، أحد أهمّ الأنثروبولوجيين المعروفين بإسهاماتهم في دراسة الرموز والطقوس، الذي خلف فان جينيب في تبنيه لنظرية طقوس العبور، فإنه قدم لنا نموذجاً ثلاثياً لطقوس العبور. وبحسب هذا النموذج، فإن عمليات الطقوس عادة ما تجري على ثلاث مراحل: ١. الفصل seperation، حيث يتم فصل المشارك أو المشاركة عن دورهم الطبيعي في بنيتهم الاجتماعية، ٢. الهامشية margin، وهي مرحلة انتقالية يكون فيها الوضع الاجتماعي للمشاركين على مستوى من الغموض والالتباس، ٣. إعادة التجميع reaggregation، إذ يعود المشاركون في طقس العبور وهم أكثر تكاملاً، مع حصولهم على هوية جديدة تحسن من مكانتهم الاجتماعية السابقة وتجعلهم أكثر قبولاً بين أقرانهم.[٩] إن هذا النموذج يمكّننا من دراسة طقوس العبور بشكل مقبول، لا سيما أن معظم الطقوس غالباً ما تمر بهذه المراحل الثلاث من الانتقال بشكل أو بآخر.

إن تيرنر يقدم طقوس العبور على أنها عملية الدخول والخروج من الزمن والبنية الاجتماعية، ولذلك فهي تساعد على إحداث تغييرات هامة في الحالة الاجتماعية لممارسيها، وتترك تأثيراً ونتائج مهمة على المشاركين سواء أكانوا أفراداً أو جماعات. وينطبق الأمر نفسه على طقوس الحداد كونها جزء من طقوس العبور، فهي أيضاً تمر بمراحل مختلفة تؤدي إلى الانفصال عن الواقع ثم الدخول في سلسلة من العمليات النفسية والاجتماعية، ثم الوصول إلى مرحلة إعادة التنظيم من أجل التعايش مع الواقع الجديد وتحرير الذات من المشاكل التي تسعى إلى كبحها وتعطيلها.

المساهمة الفعلية في ممارسة طقوس الحداد، سواء في مراسيم دفن المتوفى أو التوقف عن الحياة الاجتماعية الاعتيادية خلال فترة الحداد، تظهر بأن المجتمع بأكمله يتأثر بالحياة والموت على حد سواء، وأن هذه الطقوس هي محاولة في صيانة الهوية ضد مخاطر التغيرات الحاصلة، وهو ما يساهم في النهاية بدعم وتشكيل الهوية الجماعية عند المشاركين في طقوس الحداد

ويعتبر الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هجرية) من بين أهم العلماء المسلمين الذين تناولوا موضوع الموت والحداد بالبحث. إذ أفرد له كتاباً كاملاً سمّاه كتاب «ذِكْر الموت وما بعده»، وذلك في مؤلّفه المهم «إحياء علوم الدين»، وقد جاء الكتاب في ثمانية أبواب. ويرى الغزالي بأن الموت هو «تغيير حال فقط» وأنه ليس سوى «سفر» أو عملية سبق الآخرين إلى المستقر والوطن. وبناءً على هذا الفهم، فإن الإنسان يجب ألاّ يحزن كثيراً على فقدان أحبائه لأنه لاحق بهم عن قريب، وأن المشاركة في

إن تيرنر يقدم طقوس العبور على أنها عملية الدخول والخروج من الزمن والبنية الاجتماعية، ولذلك فهي تساعد على إحداث تغييرات هامة في الحالة الاجتماعية لممارسيها، وتترك تأثيراً ونتائج مهمة على المشاركين سواء أكانوا أفراداً أو جماعات

حضور الجنائز ومراسيم العزاء، يجب أن تركز بشكل واضح على «التفكر في الموت والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع».[١٠]

إن طقوس الحداد في الإسلام تركز بشكل مباشر على أن الحزن على الشخص المفقود يجب أن يكون فترة قصيرة لا تتجاوز أكثر من ثلاثة أيام، يستغلها المعزون بالدعاء والترحم على المفقود من دون ممارسة النياحة أو إظهار الجزع الشديد عليه. إن الحداد في الإسلام يظهر كحالة من حالات ممارسة دعم البنية الاجتماعية للأمة الإسلامية، خلال مشاركة المسلمين كأمة واحدة في طقوس الحداد خلال المشاركة في تشييع الجنازة والصلاة عليها والدعاء لها وكذلك دفنها.

وتعتبر زيارة القبور من الممارسات المستحبة عند المسلمين، لاسيما زيارة قبر النبي والصالحين. وقد كانت زيارة القبور هذه من الأمور التي كان قد نهى عنها النبي في بادئ الأمر ولكنه سمح بممارستها فيما بعد. ويروي الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ هجرية)، في مسنده عن علي بن أبي طالب عن النبي أنه قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإن في زيارتها عظة وعبرة.»[١١] وتوجد أحاديث عديدة تشجع المسلمين على زيارة القبور، لا سيما قبر النبي وقبور الصحابة والصالحين وذلك من اجل «التذكر» و» التبرك» و»الاعتبار»[١٢]. كما أن زيارة القبور والحصول على شفاعة أصحابها، غالباً ما تلعب دوراً مؤثراً وفعالاً في ممارسة طقوس زيارة قبور الأنبياء والأولياء والصالحين عند المسلمين بشكل عام، كما يعبر عن ذلك هذا الحديث المروي عن النبي « من زار قبري وجبت له شفاعتي»[١٣].

ويختلف الوهابيون عن بقية المسلمين في نظرتهم المتشددة إلى طقوس الحداد وزيارة القبور. إذ إن المذهب الوهابي الذي اشتقت تسميته من مُنشيء هذا المذهب محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦ هجرية)، وانتشر في الجزيرة العربية، كان قد رفض عدداً من الطقوس وصنفها على أنها ممارسات غير إسلامية. والوهابيون الذين يدّعون تبنيهم للفكر الإسلامي السلفي أصبحوا رافضين لكل الأعمال والممارسات

أفرد الغزالي كتاباً كاملاً سمّاه كتاب «ذِكْر الموت وما بعده»، وذلك في مؤلّفه المهم «إحياء علوم الدين»، وقد جاء الكتاب في ثمانية أبواب. ويرى الغزالي بأن الموت هو «تغيير حال فقط» وأنه ليس سوى «سفر» أو عملية سبق الآخرين إلى المستقر والوطن

التي يعتقدون بأنها ضد مبادئ الإسلام. كما أن الصلاة على النبي وأهل بيته والتبرك بقبورهم وقبور الصحابة والأولياء هي مما تحرم ممارسته. ولذلك منع الوهابيون طقوس الحداد بسبب اعتقادهم بأنها تؤدي إلى نوع من الشرك، وبالتالي تؤدي هذه الممارسات وأشباهها إلى الكفر بالله.[١٤] ونتيجة لهذا الاعتقاد، فإن الوهابيين بعد سيطرتهم على مكة والمدينة، قاموا بتحطيم وتخريب أغلب المراقد التي كان المسلمون يزورونها لاسيما في مواسم الحج.[١٥]

منع الوهابيون طقوس الحداد بسبب اعتقادهم بأنها تؤدي إلى نوع من الشرك، وبالتالي تؤدي هذه الممارسات وأشباهها إلى الكفر بالله

ولا يبدو أن هناك فرقاً كبيراً بين طقوس العزاء التي كان يمارسها المسلمون السنة أو الشيعة خصوصاً قبل استشهاد الحسين في معركة كربلاء. غير أن الفرق بدأ يتأسس بعد معركة كربلاء المأساوية، إذ يروى عن الإمام جعفر الصادق (٨٠-١٤٨ هجرية)، «أن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي (عليهما السلام)، فإنه فيه مأجور.»[١٦] إن هذا الحديث يجعل من طقوس العزاء على الإمام الحسين حالة استثنائية، بل ومختلفة كثيراً عن بقية أنواع طقوس الحداد الأخرى. فاذا كانت مظاهر العزاء مقيدة إلى حد ما في الإسلام عموماً، وأن البكاء ومظاهر الجزع الشديد هي من الممارسات المكروهة والتي لا يشجع عليها الإسلام كما أسلفنا، فإن الأمر أصبح مختلفاً كثيراً في حالة إظهار العزاء على الحسين، بل ويثاب عليه الإنسان أيضاً لممارسته. كما نجد أن أحاديث الشيعة المروية عن أئمتهم قد أصبحت تحثهم على إقامة طقوس العزاء في أوقات مختلفة وليس في عاشوراء فقط، كذلك تحث الشعراء والنعاة على إثارة شجون المستمعين، والتأكيد على مشاركة العائلة في ممارسة طقوس العزاء[١٧]. أي أن مظاهر العزاء على الإمام الحسين لم تقتصر على كونها ممارسة وجدانية تفاعلت مع مأساة كربلاء، أو مظهراً من المظاهر السياسية للصراع، إنما أصبحت ممارسة عقائدية تستمد قوتها من داخل إطار المؤسسة الدينية، والتي دخلتها طقوس الحداد كعنصر فاعل وأساسي في تعزيز بنائها وانتشارها.

ويرى عالم الإثنوغرافيا العراقي إبراهيم الحيدري (١٩٣٦-) بأن طقوس العزاء الحسيني، إضافة إلى ما وفرته من حالة دعم للأفكار الدينة، إلا أنها ظهرت أساساً كرد فعل نفسي- اجتماعي بموازاة الواقع المؤلم الذي واجهه الشيعة، وفرض عليهم ظروفاً اجتماعية وسياسية واقتصادية قاسية لا يمكن مواجهتها بصورة طبيعية أو التغلب عليها إلاّ من خلال ممارسة هذه الطقوس.[١٨] وإذا كانت ممارسة هذه الطقوس تبدو ظاهرياً على أنها رد سلبي تجاه تحديات الواقع وحتمية مواجهته، إلاّ أن طقوس العزاء التي مارسها الشيعة حفلت بجوانب عديدة من المواجهة مع هذا الواقع والصدام معه أحياناً، وهو ما

حدث مراراً، حيث استخدمت هذه الطقوس كأداة سياسية مهمة في مواجهة التحديات، والتركيز على تفعيل الروح الثورية التي تمدهم بها مراسيم استذكار معركة كربلاء واستشهاد الحسين. إن القوة التي توفرها ممارسة هذه الطقوس، تكمن في أن المشاركين فيها يحصلون بطريقة أو بأخرى على بعض ما يطمحون إليه من حلول في مواجهة واقعهم والتغلب على الصعوبات والمخاطر التي تعترض طريقهم، سواء أكانت هذه الحلول نفسية أو اجتماعية أو عقائدية.

ويرى عالم الإثنوغرافيا العراقي إبراهيم الحيدري (١٩٣٦-) بأن طقوس العزاء الحسيني، إضافة إلى ما وفرته من حالة دعم للأفكار الدينة، إلا أنها ظهرت أساساً كرد فعل نفسي-اجتماعي بموازاة الواقع المؤلم الذي واجهه الشيعة، وفرض عليهم ظروفاً اجتماعية وسياسية واقتصادية قاسية لا يمكن مواجهتها بصورة طبيعية أو التغلب عليها إلاّ من خلال ممارسة هذه الطقوس

وفي كتاب «الحركات الشيعية في العراق»، يقدم لنا عالم الاجتماع العراقي فالح عبد الجبار (١٩٤٦-) رؤيته عن الطقوس الشيعية باعتبارها نوعاً من الثقافة الشعبية التي تسعى إلى توظيف الألم سياسياً. ويجادل فالح عبد الجبار بأنّ طبقات رجال الدين والطبقات الوسطى الشيعية الحضرية، قد استخدمت طقوس الحداد الدينية بصفتها قنوات سياسية شاملة، وأن أغلب الفاعلين الأساسيين في الطقوس مارسوا أدواراً سياسية معينة كلّ بحسب رؤيته وتوجهه.[١٩] ورؤية فالح عبد الجبار هنا منصبة على ملاحقة المكاسب السياسية المتحققة جراء ممارسة طقوس الحداد وتحولها إلى مسار مختلف عن المزاعم الافتراضية للطقس الديني الشيعي. إن طقوس الحداد، هي كأي طقس آخر، لا نتوقع منها أن تقف عند حدود مناسبتها الأصلية، بل غالباً ما تتسع دلالاتها وممارساتها لتستوعب ما هو أكبر من حادثة الطقس الأساسية أو الافتراضية. وهكذا يبقى الطقس على الأغلب، هو إعادة تمثيل لحادثة أخرى يتم تعديلها عبر سلسلة من التغييرات الحتمية، لتتطابق في النهاية مع واقع الممارسين للطقس ومفاهيمهم .

ثالثاً: مفهوم زيارة الأربعين

إن ممارسة طقوس الحزن والحداد على الإمام الحسين كانت ممارسة مميزة في المذهب الشيعي، ولعبت دوراً أساسياً في بناء وترسيخ المفاهيم والمعتقدات الدينية الشيعية، كما أنها عززت في وقت لاحق، موقفهم في الدفاع والمقاومة ضد خصومهم في مختلف الفترات التأريخية. فقد تطورت هذه الطقوس عبر التأريخ لتضيف دلالات جديدة لممارسات الطقس، بل أصبحت ممارسات ذات طابع آيديولوجي وعقائدي واجتماعي ساعد كثيراً على إعادة إنتاج ودعم الهوية الشيعية.

زيارة الأربعين، هي زيارة مرقد الحسين في يوم ٢٠ صفر من التاريخ الهجري الإسلامي من كل عام ،أي بعد أربعين يوماً على ذكرى استشهاد الإمام الحسين. ويسمي الشيعة العراقيون يوم الأربعين بيوم (مردّ الرأس)، لاعتقادهم بأن رأس الحسين أُعيد إلى كربلاء في هذا اليوم ودُفن مع الجسد بعد أربعين يوماً من تاريخ استشهاده. ويأتي الاحتفال بيوم الأربعين بعد يوم عاشوراء من حيث الأهمية في طقوس الاحتفالات الشيعية، لكنه يحضى بمشاركة جماهيرية واسعة. إذ تقوم أعداد كبيرة من الشيعة العراقيين بالمشي إلى مرقد الحسين لغرض زيارته والتبرك به، في رحلة تستغرق عدة أيام أو أسابيع وتتخللها بعض الطقوس الخاصة بهذه المناسبة. كما يظهر مرقد الحسين في كربلاء أثناء أوقات الزيارة، كمركز مقدس يجذب و تنجذب إليه الزوار في آن معاً، من كافة أنحاء العراق، ومن خارجه أيضاً.

في كتاب «الحركات الشيعية في العراق»، يقدم فالح عبد الجبار رؤيتة عن الطقوس الشيعية باعتبارها نوعاً من الثقافة الشعبية التي تسعى إلى توظيف الألم سياسياً. ويجادل فالح عبد الجبار بأن كلاّ من طبقات رجال الدين والطبقات الوسطى الشيعية الحضرية، قد استخدمت طقوس الحداد الدينية بصفتها قنوات سياسية شاملة، وأن أغلب الفاعلين الأساسيين في الطقوس مارسوا أدواراً سياسية معينة كلّ بحسب رؤيته وتوجهه

وترتبط طقوس الحداد في يوم الأربعين بعودة قافلة عائلة الحسين من دمشق ومرورها بكربلاء، حيث يُعتقد بأنها قد وصلت إلى قبر الحسين بعد أربعين يوماً من ذكرى استشهاده، فوجدوا الصحابي جابر الأنصاري (توفي ٧٨ هجرية) عند قبر الحسين زائراً، وهكذا يُعتقد بأن جابر الأنصاري هو أول من زار الحسين في يوم الأربعين. وبالرغم من عدم تأكيد هذه الرواية من مصادر تأريخية مهمة، ألا أن السيد بن طاووس، أحد علماء الشيعة البارزين (٥٨٩-٦٦٤ هجرية)، كان قد ذكر هذه الرواية، ولكن دون أن يذكر بأنها قد حدثت بعد أربعين يوماً من استشهاد الحسين «ولما رجع نساء الحسين عليه السلام وعياله من الشام وبلغوا إلى العراق، قالوا للدليل: مرَّ بِنا على طريق كربلاء. فوصلوا إلى موضع المصرع، فوجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله وجماعة من بني هاشم ورجالاً من آل الرسول صلى الله عليه وآله قد وردوا لزيارة قبر الحسين عليه السلام، فوافوا في وقت واحد وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم، وأقاموا المآتم المقرحة للأكباد، واجتمعت إليهم نساء ذلك السواد، وأقاموا على ذلك أياماً»[٢٠]. وهذه الحادثة مؤشر تأريخي إلى بداية انطلاق طقوس الحداد على الحسين، حيث يظهر أن البكاء واللطم ومظاهر الحزن كانت العلامة المميزة

لممارسة طقوس الحداد على الحسين بعد استشهاده مباشرة، ولكن دون أن يتأكد لنا من أن طقوس الزيارة هذه قد مورست فعلاً بعد أربعين يوماً من استشهاد الحسين.

غير أن أقدم إشارة مهمة إلى زيارة الأربعين هي تلك التي جاءت في كتاب «تهذيب الأحكام» (أحد الكتب الأربعة في الحديث عند الشيعة) للطوسي (٣٨٥-٤٦٠ هجرية)، كونها زيارة مهمة، وأنها من علامات المؤمن «روي عن أبي محمد الحسن العسكري[٢١] (عليه السلام) أنه قال: علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم.»[٢٢] وعلى الرغم من أن زيارة الأربعين تأتي في المرتبة الثانية من حيث أهميتها الدينية والتأكيد على ممارستها بالمقارنة مع زيارة عاشوراء إلاّ أنها تحظى بحضور جماهيري أوسع طيلة السنوات الماضية التي تلت سقوط نظام البعث في العراق عام ٢٠٠٣ م.

إن زيارة القبور والاحتفال بذكرى أربعين يوماً على الوفاة هي ممارسة متعارف عليها في المجتمع الشيعي العراقي. فعادة ما يتمّ تأبين أو رثاء الميت في اليوم الثالث، اليوم السابع، اليوم الأربعون، وبعد سنة من الوفاة وتسمى بالذكرى السنوية. ولا توجد دراسات كافية، تبحث في أصول هذه الاحتفالات وسرّ ارتباطها بهذه الأعداد بعينها. إلا أنه من الواضح أن بعض هذه الأرقام قد لعبت دوراً مميزاً في هذه الاحتفالات وبالخصوص الرقم أربعون. إن التعامل مع بعض الأعداد المميزة في الحياة اليومية، مسألة لا تتعلق بمجتمع أو دين ما دون غيره، بل إنها حالة يمكن رؤيتها كثيراً أيضاً عند بقية المجتمعات الأخرى.

أصبحت طقوس المشي في زيارة الأربعين لا تمارَس كطقس ديني فحسب، بل ممارسة تحمل كثيراً من معاني المقاومة والتحدي الشيعي ضد محاولات السلطة العراقية في إضعاف هويتهم وتحجيم ممارساتهم الدينية

وعُرِف عن زيارة الأربعين عند العراقيين في العقود الأخيرة، بأنها غالباً ما تؤدي إلى الاصطدام بنظام البعث في العراق، الأمر الذي أدى إلى منعها أيضاً مع بقية الطقوس الشيعية الأخرى. إن منع ممارسة الطقوس ومن بينها طقوس المشي لغرض زيارة مرقد الإمام الحسين في يوم الأربعين، لعبت دوراً فعالاً في تحدي الزوار للحكومة العراقية وقرارات المنع. حيث أدت هذه القرارات إلى زيادة التوترات بين الزوار وقوات الأمن قبل أن تتحول إلى صدامات مسلحة عام ١٩٧٧ بالقرب من كربلاء. وبالتالي أصبحت طقوس المشي في زيارة الأربعين لا تمارَس كطقس ديني فحسب، بل ممارسة تحمل كثيراً من معاني المقاومة والتحدي الشيعي ضد محاولات السلطة العراقية في إضعاف هويتهم وتحجيم ممارساتهم الدينية.

رابعاً: عناصر طقوس الأربعين

إن العلاقة الحيوية بين المجتمعات البنيوية وغير البنيوية «الكوميونتاس» communitas كونهما يمثلان العمود الفقري لجوهر الطقس كما عند فيكتور تيرنر، يمكن أن تقدم لنا مدخلاً مهماً ومفيداً لدراسة زيارة الأربعين. حيث يمكن ملاحظة أهمية الدور الذي تلعبه العلاقات والروابط الاجتماعية عند العراقيين الشيعة في زيارة الأربعين، كحالة انعكاس بين واقعهم الاجتماعي باعتبارهم إحدى المجتمعات غير المتمايزة communitas والطابع البنيوي العام للمجتمع العراقي.

وفي زيارة الأربعين، كما في أغلب أنواع الزيارات الشيعية الأخرى، يظهر أسلوب التعبير الجماعي الذي تمارسه مجاميع المشاركين في طقس الزيارة، بمثابة العامل الأهم الذي يظهر للعيان من خلال ممارسة هذا الطقس الجماعي. حيث تعكس الزيارة في مظهرها الخارجي، وحدة الأفراد وتكاملهم وتكاتفهم داخل المجتمع الشيعي، بينما تعكس في مظهرها الداخلي تكِّون ونشوء المجاميع الشيعية، وقدرة بعضها على التمايز وممارسة بعض أدوار السيطرة والتحكم على المجاميع الأخرى.

يعتبر المشي علامة بارزة في طقوس زيارة الأربعين. إن المشي في الطقوس الدينية عموماً ليس فعلاً جسدياً أو حركياً فقط، وإنما هو أحد الفعاليات الحيوية التي يحصل الممارس من خلالها على حالة من التطابق الروحي والجسدي داخل الطقس

ويميز تيرنر بين ثلاثة مستويات من المجاميع (communitas)، غير المتمايزة عن المجتمعات ذات البنية المؤسسة والتي تسعى غالباً إلى بناء وترسيخ وجودها. إن هذه المستويات الثلاثة لها أهمية حاسمة في تكوين طبيعة الروابط الاجتماعية في الرحلة الى الاماكن المقدسة، الأمر الذي يمكن رؤيته أيضاً في زيارة الأربعين، حيث يعتبر وجودها ملمحاً مهماً وفاعلاً في هذه الطقوس، وهذه المستويات التي افترضها تيرنر هي:

١. Existential or spontaneous communitas، وهي المجاميع الوجودية أو العفوية. وفي هذا المستوى من المجاميع عادة ما تحصل المجابهة الكلية المباشرة والفورية للهويات الإنسانية، والتي عند حدوثها تَّولد نزعة عند ممارسيها تشعرهم بأن الإنسانية هي متماثلة (متجانسة)، وغير منظمة (غير بنيوية) وان هذه المجاميع هي في الأصل مجاميع حرة[٢٣]. وغالباً ما تقوم هذه المجاميع بالتعبير عن نفسها من خلال الأسلوب الجماعي الذي يُظهر وحدتها وتكافلها من خلال مشاعر الوحدة والانسجام فيما بينها. وفي زيارة الأربعين، عادة ما يكون التكافل والتضامن ومشاعر الانتماء المشتركة، هي أحد أهم المظاهر التي يعكسها اندماج جموع المشاركين الشيعة في طقوس الزيارة. حيث تساهم هذه

المجاميع المشاركة والقادمة من مختلف أنحاء العراق، على إعادة إنتاج ودعم وترسيخ الهوية الشيعية وكذلك الوجود الشيعي ضمن بنية المجتمع الإسلامي عموماً والعراقي على وجه الخصوص. وجراء هذا الاندماج الواسع للمجاميع الشيعية، فإن الحدود المحلية والجغرافية الفاصلة بين مختلف المجاميع قد تتلاشى أو تختفي إلى حدّ بعيد، خصوصاً عند تلك المجاميع التي تمارس المشي في رحلتها فتقطع مسافات طويلة وهي بالقرب مع بعضها، تواجه التحديات والمخاطر المشتركة ذاتها، وتعيد اكتشاف الحيز المكاني الذي تمارس فيه رحلتها المقدسة بصورة مشتركة أيضاً.

بلغت أعداد الزوار الذين شاركوا في طقوس زيارة الأربعين لعام ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م أكثر من ١٧,٥ مليون زائر(وهو ما يمثل بحدود ٥٦٪ من المجموع الكلي لسكان العراق البالغ عددهم بحدود ٣١ مليون تقريباً)، إضافة الى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ زائر قدموا من خارج العراق

٢. Normative communitas وهي المجاميع المعيارية التي بمرور الوقت تحتاج إلى تعبئة وتنظيم مواردها من أجل الحفاظ على حياة المجموعة وازدهارها، وكذلك هي تسعى في الوقت ذاته، إلى السيطرة الاجتماعية كإحدى أهم الوسائل لتحقيق هدفها هذا وغيره من الأهداف الجماعية[٢٤]. إن هذه المجمايع تعبر عن وجودها من خلال إيجاد نوع من الروابط الاجتماعية فيما بينها وبين المشاركين في طقوس الزيارة، حيث تطمح من خلال هذه الروابط إلى ترسيخ قوة حضورها الجماعية من أجل تفعيل سيطرتها ومكانة أعضائها الاجتماعية. إذ تعمل العديد من هذه المجاميع في زيارة الأربعين بشكل (مواكب) تسعى إلى توطيد علاقاتها مع الزائرين وإدامتها دورياً، من خلال تقديم المساعدة والخدمات المختلفة لهم، مثل الأكل والشرب والمَبيت والرعاية الصحية. كما تسعى هذه المجاميع إلى تعزيز مصادرها المادية سواء عن طريق التمويل الذي تتلقاه من أعضائها أو من خلال الحصول على بعض التمويل من أشخاص آخرين، يدخلون هذه المجاميع بقوة كعناصر فاعلة ومؤثرة في حركتها مستقبلاً.

٣. Ideological communitas وهي المجاميع العقائدية، التي يمكن أن تشاهد على هيئة مجاميع متنوعة من النماذج ذات الأفكار المثالية أو الطوباوية (utopian)، وهي مجاميع مؤمنة بكتّابها ومفكريها ليكونوا بمثابة العناصر المثالية لوجود وبناء وديمومة المجموعة communitas[٢٥]. إن أكثر الأشخاص أهمية في هذه المجموعة ، هم رجال الدين، الذين تعتبر تعاليمهم وتوصياتهم ملزمة وحتمية لأفراد المجموعة، وكذلك تكون أفكارهم ونظرياتهم هي الخيار الأفضل والأكثر قبولاً لديمومة المجموعة. كما يمكن ملاحظة فاعلية هذه المجموعة في زيارة الأربعين، وذلك من خلال تعاليم ووصايا رجال الدين التي تنتشر بشتى

الوسائل في طريق المشي. حيث تلعب المطبوعات والمنشورات المختلفة مثل اللافتات والكتيبات الصغيرة دوراً جوهرياً في نشر أفكار هذه المجاميع، لا سيما تلك الكراسات الصغيرة التي توزع من خلال وكلائهم ومريديهم على المشاركين برحلة الزيارة. كما تسعى هذه المجاميع إلى عرض أفكارها وتصوراتها العقائدية على أنها الأفكار الأكثر قدرة على تحقيق الحلول الناجحة للشيعة، وان أفكار قياداتهم الدينية لا بد ان تُعَمَم وتُنشر بين أكبر عدد ممكن من المجموعة لغرض الاستفادة منها على نطاق أوسع باعتبارها النموذج الأكثر نجاحاً وملائمة للمشاركين من بقية النماذج الشيعية الأخرى .

قمت بدراسة ميدانية لهذه الطقوس، وذلك بمصاحبة الزوار مشياً على الأقدام في زيارة الأربعين لعام ١٤٣٣ هجرية-٢٠١٢ ميلادية. حيث انطلقت ماشياً (برفقة اثنين من المساعدين) مع مجاميع الزوار من مدينة النجف إلى كربلاء، و استغرقت الرحلة أربعة أيام، قطعنا خلالها ما يقرب ٩٠ كم، وهي المسافة من مرقد الإمام علي في النجف الأشرف إلى مرقد الإمام الحسين في كربلاء

خامساً: طقوس المشي إلى كربلاء في زيارة الأربعين ١٤٣٣هجرية-٢٠١٢ ميلادية

يعتبر المشي علامة بارزة في طقوس زيارة الأربعين. إن المشي في الطقوس الدينية عموماً ليس فعلاً جسدياً أو حركياً فقط، وإنما هو أحد الفعاليات الحيوية التي يحصل الممارس من خلالها على حالة من التطابق الروحي والجسدي داخل الطقس. إن زيارة مرقد الحسين في كربلاء هو جزء من رحلة مقدسة يرغب الزائر بممارستها بمعزل عن الاستعانة بالوسائل التقليدية في التنقل، إذ أن الاستعانة بهذه الوسائل لا تحقق لممارس الطقس انفصالاً كاملاً عن عالمه اليومي المعتاد، لا سيما إذا علمنا بان الانفصال عن العالم المعتاد هو إحدى المراحل الأولى التي يتم من خلالها الدخول في أجواء الطقس الأساسية. كما ان المشي في الزيارة أو الرحلة المقدسة يصبح كأي طقس آخر من الطقوس، فهو لا بد أن يمر بالمراحل الثلاث التي حددها فيكتور تيرنر، وذلك من أجل بلوغ مرحلة العبور.

إن المشي في طقوس زيارة الأربعين، يتيح للممارسين استثمار عنصر الحركة الجسدية وتوظيفها لغرض الحصول على حالة التطهير الروحي، والتي هي غالباً ما تكون من أهم النتائج التي يحصل عليها الممارس للطقوس في رحلته المقدسة. إذ يصبح جسد الممارس أثناء وبعد هذه الرحلة، جسداً ضعيفاً ينقاد بيسر، وتختفي منه تلك الرغبات والشهوات الجامحة التي غالباً ما كانت تحتاج إلى جسد قوي من أجل تنفيذها. ولذلك تصبح حالة التطهير الروحي التي يمر بها

ممارس طقوس المشي هي العلامة الأقوى في رحلته، وقد يستمر تأثير حالة التطهير المكتسبة بهذا الفعل لمدة قد تطول إلى ما بعد انتهاء الرحلة. كما يوفر المشي في طقس الزيارة حالة من المعرفة الجديدة للممارس، فهو في رحلته هذه إنما يكتشف أو يعيد اكتشاف العالم من حوله، مثل اكتشاف أماكن جديدة، وعلاقات جديدة نتيجة لقائه بشخصيات كثيرة خلال هذه الرحلة. وبالتالي يوفر الطقس للممارس حالة من اكتشاف محيطه والتآلف معه، وكذلك إعادة اكتشاف ذاته والتطابق معها، وهو ما يمهد الطريق لحصوله على حالة التغيير التي تنتج عن ممارسة طقس الزيارة بصورة عامة، وطقس المشي بصورة خاصة.

انطلقتُ من مدينة البلديات في بغداد إلى النجف في باص للنقل العام برفقة اثنين من المساعدين لغرض مرافقة الزوار والمشي معهم من مرقد الإمام علي في النجف

إن رحلة السير على الأقدام مشياً إلى ضريح الإمام الحسين، هو أهم ما يميز زيارة الأربعين عن غيرها من الزيارات الشيعية في العراق. وبالرغم من أن وقت الزيارة هو في العشرين من شهر صفر، تبدأ مجاميع السائرين، أو كما يطلق عليهم في العراق (المشاية)، رحلتهم مبكراً إلى كربلاء وقبل أسابيع من موعدها، بسبب بعد المسافة وكذلك تحسباً لأيّ تأخير قد ينجم جراء الازدحام الشديد وتلافياً لأي عراقيل تؤخر وصولهم إلى هدفهم المشترك في كربلاء. وبسبب من أن مدينة كربلاء لا تتسع للأعداد الكبيرة جداً في هذه الزيارة والتي قد تصل إلى عدة ملايين، فإن الكثير من الزائرين الذين يصلون مبكراً قبل يوم الأربعين، يؤدون طقوس الزيارة ثم يعودون إلى منازلهم، فاسحين المجال لأعداد أخرى. وهكذا تستقبل المدينة الملايين من الزوار بسبب استمرارية قدومهم ومغادرتهم على مدى أسبوعين تقريباً قبل موعد زيارة الأربعين. ولهذا السبب فإن أعداد الزوار الذين شاركوا في طقوس زيارة الأربعين لعام ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، بلغت أكثر من ١٧,٥ مليون زائر(وهو ما يمثل بحدود ٥٦٪ من المجموع الكلي لسكان العراق البالغ عددهم بحدود ٣١ مليون تقريباً)، إضافة الى ما يقرب من ٣٠٠٫٠٠٠ زائر قدموا من خارج العراق، وهذه الأعداد تمثل عدد الزائرين المشاركين في زيارة الأربعين خلال أسبوعين وحتى يوم الأربعين كما صرحت بذلك الجهات العراقية الرسمية.[٢٦] أما الأعداد التي شاركت فعلياً في زيارة مرقد الحسين بكربلاء في يوم الأربعين حصراً، فهي أقل من هذا العدد بكثير، إذ لا تتسع كربلاء لأكثر من مليوني زائر تقريباً إذا تواجدوا في وقت واحد داخل المدينة.

ولغرض دراسة الطقوس الخاصة بزيارة الأربعين وبقية الممارسات الأخرى المصاحبة لها، قمت بدراسة ميدانية لهذه الطقوس، وذلك بمصاحبة الزوار مشياً على الأقدام في زيارة الأربعين لعام ١٤٣٣ هجرية-٢٠١٢

ميلادية. حيث انطلقت ماشياً (برفقة اثنين من المساعدين) مع مجاميع الزوار من مدينة النجف إلى كربلاء، و استغرقت الرحلة أربعة أيام، قطعنا خلالها ما يقرب ٩٠ كم، وهي المسافة من مرقد الإمام علي في النجف الأشرف إلى مرقد الإمام الحسين في كربلاء. وخلال هذه الأيام الأربعة قمت بمرافقة الزوار ومراقبة تصرفاتهم وأفعالهم، وكذلك التحدث إليهم وإجراء العديد من المقابلات مع بعضهم، هذا بالإضافة إلى توثيق ما شاهدته في الطريق بالصوت والصورة.

١. اليوم الأول الاثنين ١٥ صفر ١٤٣٣ هجرية/ ٩ كانون الثاني ٢٠١٢ ميلادية

انطلقتُ من مدينة البلديات في بغداد إلى النجف في باص للنقل العام برفقة اثنين من المساعدين لغرض مرافقة الزوار والمشي معهم من مرقد الإمام علي في النجف. وكان سبب اختيار المشي إلى كربلاء عن طريق النجف، راجع إلى التنوع في خلفيات المشاية الذين يسلكون هذا الطريق بالذات. إن أغلب زوار مدن النجف والسماوة، وكذلك زوار المدن الجنوبية القادمين من البصرة والناصرية والعمارة، إضافة إلى عدد من زوار المدن الشمالية، وأيضاً الزوار القادمين من خارج العراق، جميعهم يستخدمون طريق نجف-كربلاء وهو ما يجعل من هذا الطريق مكتظاً أكثر من غيره من الطرق الأخرى (انظر الجدول رقم ١).

في أغلب المناطق العراقية السنية، حيث لا يتم الاحتفال بطقوس عاشوراء والأربعين من قبل السنّة العراقيين، وإن تمّ أحياناً فإنه لا يعدو كونه نوع من المجاملة الاجتماعية وإظهار حسن النوايا أو من باب التحشيد السياسي. وقد حصلت بعض الاحتفالات المشتركة، على سبيل المثال، في ثورة عام ١٩٢٠ (ثورة العشرين) ضد الاحتلال البريطاني للعراق

المدينة	المسافة إلى كربلاء(كم)
الحلة	٤٥
النجف	٨٣
بغداد	١٠٣
الديوانية	١٢٥
واسط	١٣٣
ألانبار	١٤٥
ديالى	١٦٠
السمأوه	٢١٤
سامراء	٢٣١
الناصرية	٣١٥
العماره	٣٥٥
كركوك	٣٦٩
السليمانية	٤٠٧
اربيل	٤٥٩
الموصل	٤٨٧
البصرة	٤٩٠
دهوك	٥٦٦

جدول رقم (١): المسافة بين كربلاء وبقية المدن التي ينطلق منها الزوار. الجدول أعد من قبل الباحث

وعلى الرغم من أن هناك ثلاثة طرق رئيسية يسلكها الزوار في مشيهم وهي: طريق النجف – كربلاء، طريق الحلة – كربلاء، وطريق بغداد –كربلاء، يبقى طريق النجف–كربلاء متميزاً عن غيره من الطرق الأخرى بسبب من أهميته وأبعاده الروحية والتاريخية (وسنناقش ذلك بصورة أكثر تفصيلاً لاحقاً). كما أن زيارة مرقد علي بن أبي طالب (٦٠٠-٦٦١ م)، إمام الشيعة الأول، في النجف من قبل المشاركين، يحقق لهم بعداً رمزياً وروحياً مما يساعدهم ذلك كثيراً في إتمام رحلتهم المقدسة إلى كربلاء[٢٧].

اتجه بنا الباص ـ كان جميع ركابه من الشيعة الذاهبين لزيارة ضريح الإمام علي ـ من بغداد باتجاه النجف جنوباً (١٦٠ كم)، وهو ذات الطريق المؤدي أيضاً إلى كربلاء، ولكن قبل أن يفترقا في منتصف المسافة. انتشرت على جانبي الطريق أعداد كبيرة من المشاية المتجهين إلى كربلاء عن طريق بغداد–كربلاء، بعضهم يرفع الأعلام الحسينية وبعضهم الآخر يرتدي أكفاناً بيضاً ينتمي أغلبهم الى التيار الصدري، وهي دليل على تخلّيهم عن مظاهر حياتهم الاعتيادية غير المقدسة، واستعدادهم لرحلة التطهير والتغيير التي قد يواجهون فيها الموت، فيستعدون له بارتدائهم (الكفن)، وهو رمز الموت من جهة ورمز للطهارة من دنس الحياة الدنيوية. وكانت النساء يرتدين العباءات التقليدية السود ويضعن على رقابهن أو فوق رؤوسهن قطعاً من القماش الأخضر، وقد رفع بعضهنّ الأعلام الخضراء كذلك. وهذه الأعلام هي إحدى الرموز الهامة التي يتم من خلالها الانتقال من زمن الى آخر في الطقس، كما أنها تعبر عن خلفية حاملها. فالراية هي العلامة التي يستدل بها على شيء أو التي تشير إلى شيء، وكذلك تكون الراية في الحرب مكاناً يجتمع عنده المقاتلون[٢٨]. إن الراية أيضاً هي علامة يمكن أن تشير إلى صفات حاملها ومعانيه، كما تعبر عن خصاله وميزاته. ويرمز لون الراية الأخضر إلى لون الإسلام بشكل عام، بينما يعتبر عند الشيعة لون خاص يرمز للنبي وآل بيته، وهو بذلك يعبر عن ارتباط وثيق الصلة بالبنية الإسلامية الأساسية، والمتمثلة في النبي والأئمة الاثنى عشر من ذريته. وعند حاجز عسكري مؤلف من عدد من الآليات العسكرية وبعض الجنود ، قُطع الشارع أمام جميع المركبات لفسح الطريق للمشاية، فاتجه الباص إلى طريق فرعي في مدينة الدورة (جنوب غرب بغداد)، والتي اعتبرها العراقيون في السنوات الماضية من المناطق الساخنة والمتوترة أمنياً.

ربما تكون شخصية الشمر التي يتم تمثيلها في التشابيه بشعرها الأشقر الطويل هي محاولة رمزية صاغتها الذاكرة الجماعية الشيعية لعقاب الشمر أسطورياً من جهة، وكذلك نفيه رمزياً خارج محيطه الاجتماعي

كان الطريق الذي سلكه الباص يخترق مناطق زراعية في منطقة تسمى (هور رجب)، وهي منطقة

زراعية تسكنها أغلبية سنية، كانت قد شهدت أعمال عنف عديدة في السنوات الماضية. كانت أعداد كبيرة من قوات الشرطة والجيش تنتشر على جانبي الطريق وبصورة كثيفة بمصاحبة عدد من المدنين المسلحين من أبناء المنطقة الذين يساهمون في نشر الأمن المحلي والذين يعرفون بـ(أبناء الصحوات). بدت المدينة وطريقها الرئيسي على خلاف ما اعتدناه في مناطق بغداد الأخرى، لا وجود للأعلام أو البوسترات الحسينية، لا وجود للمواكب أو لمكبرات الصوت التي تنبعث منها المراثي الحسينية والأناشيد، كما أنها مدينة بلا خيام أو مواكب الخدمة الحسينية التي تنتشر عادة في المناطق الشيعية. إنها مدينة بلا أي مظهر يوحي بمشاركتها في طقوس الحداد الشيعية. وهذا المشهد يكاد يكون مألوفاً في أغلب المناطق العراقية السنية، حيث لا يتم الاحتفال بطقوس عاشوراء والأربعين من قبل السنّة العراقيين، وإن تمّ أحياناً فإنه لا يعدو كونه نوع من المجاملة الاجتماعية وإظهار حسن النوايا أو من باب التحشيد السياسي. وقد حصلت بعض الاحتفالات المشتركة، على سبيل المثال، في ثورة عام ١٩٢٠ (ثورة العشرين) ضد الاحتلال البريطاني للعراق. فقد أصبح الشيعة والسنة جنباً إلى جنب من أجل إظهار وحدتهم في ظل التحديات الوطنية. ولهذا السبب، أصبح السنة حينها يشاركون الشيعة ممارساتهم الدينية في مساجدهم، وهكذا فعل الشيعة الأمر نفسه بمشاركة السنة احتفالاتهم والحضور إلى مساجدهم.[٢٩] وقد صادفنا بالفعل أحد المواكب السنية بالقرب من نهاية طريق (هور رجب). كان الموكب في نهاية الطريق وبالقرب من نقطة تفتيش عسكرية، حيث نصبت خيمة كبيرة وعلقت عليها الأعلام و مكبرات الصوت التي تصدح باللطميات الحسينية، بينما تجمَّع بالقرب من المكان، العديد من الرجال وهم يشربون الشاي بجوار لوحة كبيرة كتب عليها (موكب عشائر الدليم) وهي عشيرة من العشائر السنية الكبيرة في العراق.

انطلقنا من مرقد الإمام علي مع مجاميع كثيرة من المشاية عند الساعة الثانية بعد الظهر في طريق اخترق مقبرة وادي السلام (أكبر مقبرة شيعية في العالم) من أجل الوصول إلى الشارع المؤدي إلى مدينة كربلاء (انظر الصورة رقم ١).

كان آلاف من (المشاية) يسيرون بإيقاع سريع، حاملين راياتهم الحسينية الخضر، والتي حرص بعضهم على مسحها بضريح الإمام علي قبل الشروع بالمشي، وذلك لمنحها قدسية رمزية تصاحبهم خلال رحلتهم القادمة. وانتشر على جانبي الطريق عدد من باعة الرايات الحسينية، والصنادل (النعل) المخصصة للمشي، والتي كانت تمتاز بخفتها ونوع مادتها وتصميمها الملائم لقطع مسافات طويلة، وعادة ما يفضل أغلب المشاركين استعمالها بدلاً عن جميع أنواع الأحذية الأخرى.

مشينا بضعة كيلو مترات في طرق فرعية ترابية قبل وصولنا إلى الطريق الرئيسي. وعند وصولنا إلى الطريق المؤدي إلى كربلاء اكتظّ الشارع بسبب وصول أعداد كبيرة من مختلف الطرق الفرعية الأخرى، ليتوحدوا في طريق واحد نحو كربلاء. وقد أُغلق طريق الذهاب إلى

كربلاء بوجه السيارات وتمّ تخصيصه للمشاية فقط، أما طريق الإياب فقد ترك مفتوحاً أمام المركبات. وعند بداية هذا الطريق، كانت أعمدة الكهرباء قد رقمت تصاعدياً، حيث يبدأ العمود الأول بالرقم (١) في النجف وينتهي العمود الأخير بالرقم (١٤٥٧) قرب مرقد الحسين وهي مسافة تقدر ب(٨٣ كم)، وتستخدم هذه الطريقة في الترقيم لأغراض عديدة من بينها استخدام الأعمدة كنقاط للدلالة على المسافة المتبقية لبلوغ كربلاء، وكذلك تستعمل كنقطة دالة بين الزوار أنفسهم، لا سيما حين يسيرون في بعض الأماكن التي يجهلون أسماءها.

كان المشاية يسيرون بخطوات سريعة رافعين الأعلام الحسينية، ومخترقين مواكب الخدمة التي انتشرت على جانبي الطريق. وبعد عدة كيلومترات كان هناك موكب تشابيه يسير بين الجموع. ويتألف هذا الموكب من مجموعة أطفال يحملون رماحاً طويلةً معلقة فوق نهايتها رؤوساً مقطوعة ومعصوبة بعمائم خضر، ويتبع الرؤوس مجموعة من الأطفال بملابس خضر وقد ربطت أيديهم بحبال تنتهي بيد رجل يرتدي الملابس الحربية التاريخية ذات الألوان الحمر والصفر. وبالقرب من هؤلاء الأطفال انتشرت أيضاً مجموعة من الرجال المقاتلين بملابسهم الحمر وهم يلوحون بسيوفهم في الهواء، بينما برز من بينهم محارب ذو شعر أشقر وطويل، وهو يضرب الأطفال بسوط في يده.

صورة رقم ١
الزوار (المشاية) وهم يسيرون في طريق النجف- كربلاء

ويسير موكب التشابيه هذا مع مجاميع المشاية دون أن يتوقف. وتُعبَّر هذه المشاهد عن إعادة أحداث أَسر عائلة الحسين من قبل جنود الجيش الأموي بعد استشهاد الحسين، وتعليق رأسه وأهل بيته على الرماح من أجل التشفي، وكذلك لغرض إثارة الرعب في قلوب الآخرين. ويعتبر الحسين أول مسلم يقطع رأسه ويرفع على خشبة يطاف بها في الشوارع والأسواق لغرض التشفي

بقتله وإرهاب المسلمين.[٣٠] وبينما يمكن الاستدلال على عائلة الحسين من ألوان ثيابهم الخضر، فإن الجنود الأمويين يستدل عليهم من ألوان ثيابهم الحمر والصفر، أما الجندي ذو الشعر الأشقر الطويل الذي كان يضرب الأطفال، فهو الشمر بن ذي الجوشن الذي يُعتقد بأنه قاتل الحسين.

إن شكل الشمر بشعره الأشقر الطويل يدل على عدة معانٍ وإشارات مهمة في التشابيه. ولا تذكر لنا المصادر التأريخية شيئاً معيناً عن حقيقة امتلاك الشمر لهذا النوع من الشعر، لا سيما أن العراق منطقة لم تألف هذا النوع من الشعر الأشقر، كما أن أغلب السكان يمتلكون شعوراً سوداً وهي صفة الشعر الغالبة في منطقتهم. ولذلك فإن هذه الهيئة التي يبدو عليها الشمر بشعره الأشقر الطويل، ربما هي محاولة لبناء شخصية أسطورية سلبية للشمر، والتأكيد على أن هذه الشخصية، هي ليست عراقية أو عربية، وإنما هي شخصية أسطورية غريبة عن المكان وتقاليده حتى وإن كانت تنتمي إلى المكان على صعيد الواقع التأريخي. ففي المقام الأول يستحق الشمر هذا العقاب الناتج عن تنكره وتمرده على التقاليد العربية الإسلامية، وذلك منذ أن تجرّأ على قتل الحسين حفيد الرسول (ص)، وفي المقام الثاني، إن الشمر قد انتهك التقاليد العربية والإسلامية، وهي إهانة لا تغتفر بحسب أعرافهم ونواميسهم، ويستحق مرتكبها العقاب الذي قد يصل إلى الطرد من المكان نفسه. فالشمر لم يراعِ التقاليد العربية في احترام نساء وأطفال عائلة الحسين، وعوضاً عن ذلك أساء معاملتهم وشتمهم وأحرق خيامهم.

ولهذه الأسباب، ربما تكون شخصية الشمر التي يتم تمثيلها في التشابيه بشعرها الأشقر الطويل هي محاولة رمزية صاغتها الذاكرة الجماعية الشيعية لعقاب الشمر أسطورياً من جهة، وكذلك نفيه رمزياً خارج محيطه الاجتماعي. ولذلك فإن الشمر يظهر غريباً سواء في التشابيه وحتى في الخيال الشيعي كذلك، لأن سلوكه وصفاته لا تعكس سلوك وصفات العراقيين أو العرب،

صورة رقم ٢
بعض النساء المشاركات في طقوس المشي وهنّ يقدمن نذورهن.

بل هي انعكاس لصورة (العدو الغريب) غير العربي وغير المسلم، وربما تكون في نهاية الأمر هيئة الشمر، وكذلك هيئة أغلب جنود معسكر أعداء الحسين ما هي إلاّ صورة لعدو المسلمين والعرب، ولذلك فهي صورة تُعطي كثيراً من الشبه لصورة محارب (رومي) لا يعير اهتماماً للتقاليد العربية أو الإسلامية.

وما أن قاربت الشمس على المغيب، حتى بدأ بعض الأشخاص المتطوعين بالوقوف في منتصف طريق المشي طالبين من المشاية التوقف والمبيت في مواكبهم، بينما كان بعضهم الآخر يطلب من المشاية بإلحاح، الذهاب معهم إلى منازلهم لكي يقوموا بتضييفهم على أكمل وجه.

وعند وصولنا إلى منطقة حي (الكرامة) أمسك بي أحد الشباب قائلاً: تفضل معي أنت وجماعتك لنخدمكم هذه الليلة. أشار لي أحد مرافقي بأن أستيجيب لدعوته، ففعلت. وصلنا إلى منزل سيد باسم برفقة بعض الزوار الآخرين، فاستقبلنا والده (السيد جاسم الموسوي) بالترحاب وهو يردد «أهلاً بزوار أبو السجاد ..أهلاً بزوار الحسين». أدخلونا غرفة الجلوس واستأذننا سيد باسم ليذهب من أجل إحضار المزيد من الزوار، وبعد دقائق، أصبح عددنا عشرة أشخاص. كان مُضيِّفنا الأب السيد جاسم، رجلاً ودوداً، في منتصف الستينات من عمره تقريباً، وهو ينحدر من سلالة السادة التي ترجع في أصولها إلى النبي محمد (ص)، وعادة ما يتمتع السادة باحترام كبير في المجتمع الشيعي العراقي ويُنادى عليهم باسم (سيد) قبل استخدام اسمهم الأول. قال سيد جاسم: إعذروني لإن سخان الماء لا يعمل بسبب انقطاع التيار الكهربائي، غير أننا سنسخن لكم الماء بواسطة طباخ الغاز لكي تستطيعوا أن تتحمموا. ثم أمرنا بخلع جواربنا لكي يغسلها بنفسه، معلّلاً ذلك «بأنه سيزداد شرفاً بغسل جوارب زوار الحسين»، وأن عمله هذا لا يساوي شيئاً أمام الأقدام التي ستواصل مشيها المبارك لتزور قبر الحسين. ثم قدموا لنا العشاء والشاي والسكائر. وأخذ السيد جاسم يقصّ علينا القصص عن بعض ذكرياته السابقة ماشياً إلى قبر الحسين عندما كان شاباً، وكذلك بعض الأحاديث المختلفة، قائلاً إنه إنما يحاول أن يُرفِّه عنا قليلاً، لأن من واجب الضيافة أن يقوم المضيف بالترفيه عن ضيوفه. يبدو أن السيد جاسم قد فعل معنا ما فعله مع مجموعتين من الزوار قبلنا، كان قد ضيفهما في الليلتين الماضيتين.

كان التعب بادياً على بعض المشاية الضيوف الذين طلبوا بعض الإسعافات الأولية مثل المعقمات الطبية والقطن من أجل معالجة أقدامهم المتقرحة. كان بينهم ثلاثة شبان قدموا من البصرة وقد ساروا لأكثر من اثني عشر يوماً، وهم عمال يعملون بأجر يومي في مكان واحد، ويذهبون لزيارة الحسين مشياً في زيارة الأربعين للسنة الخامسة على التوالي. أما الرفقاء الأربعة الباقين فثلاثة منهم من مدينة السماوة، وكانوا قد مشوا لأربعة أيام، بينما كان الرابع من مدينة الكوفة في النجف وقد بدأ المشي في اليوم نفسه. وقبل أن ننام كنت قد تحدثت مع بعضهم عن دوافعهم للمشي، أجابني أحد الشباب من مدينة البصرة: هناك من يبحث عني لتفجيري لأني أُحبّ الحسين، أنا لست خائفاً من أحد، أمشي متحدياً هذا

الإرهابي وغيره، لأنني أُحبّ الحسين، ولست خائفاً من الإرهاب. كان هذا الشاب يشير في حديثه ضمناً إلى الانفجار الدموي الذي نفذه بعض الإرهابيين ضد المشاية، أثناء مروره مع رفاقه في مدينة البطحاء بالقرب من الناصرية قبل أيام.

نِمْنا مبكراً عند الساعة التاسعة، واستيقضنا على صوت السيد جاسم وهو يرفع آذان صلاة الصبح عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً. تناولنا فطورنا وشربنا الشاي وودعنا السيد جاسم، وشكرناه. بعدها نقلنا ولده السيد باسم بسيارته إلى نفس المكان الذي أخذنا منه في الليلة الماضية، عند الطريق المؤدي إلى كربلاء طبعاً.

٢ .اليوم الثاني: الثلاثاء ١٦ صفر ١٤٣٣ هجرية / ١٠ كانون الثاني ٢٠١٢ ميلادية

كان الجميع رجالاً ونساء يمشون بقوة ونشاط، إنها السادسة صباحاً، وبإمكانهم أن يسيروا بسهولة في طريق كربلاء. إلا أنه وبعد ساعتين، أصبح التقدم إلى الإمام عسيراً بسبب الازدحام الشديد، خصوصاً على بعض النساء اللواتي يدفعن عربات أطفالهن، وكذلك على بعض المقعدين الذين عادة ما يرافقهم ذويهم من أجل مساعدتهم. كانت المواكب والخيام والحسينيات متراصة بعضها إلى بعض، أعداد كبيرة منها تحمل أسماء العشائر الراعية لبعض هذه المواكب، والقسم الآخر يحمل أسماء أخرى مختلفة، مثل مواكب الطلبة أو حسينيات تحمل أسماء شخصيات مشهورة عند الشيعة كالشيخ أحمد الوائلي (١٩٢٨-٢٠٠٣)، أحد أشهر قراء المجالس الحسينية.

إن الطريق يبدو أشبه بمهرجان للرموز والعلامات التي توّلد دلالات عديدة عن أفكار وخلفيات ورغبات المشاركين في الطقس.»

ويقوم بعض يقوم المشاية برفع شعارات مختلفة قسم منها مطبوع فوق حقائبهم أو على ملابسهم، تعبر عن خلفيتهم الشيعية، وتعلن في الوقت نفسه عن وجهة رحلتهم المقدسة إلى كربلاء. كما يمكن مشاهدة أعداد من المشاية وهم يحملون الأعلام العراقية، وفي بعض الأحيان، أعلام دولة البحرين في كإشارة إلى تضامنهم مع شيعة البحرين في حركتهم الاحتجاجية ضد السلطات البحرينية، والتي قد بدأت منذ مطلع عام (٢٠١١) متزامنة مع ما يعرف بثورات الربيع العربي التي حدثت في عدة إماكن مثل تونس ومصر.

إن الطريق يبدو أشبه بمهرجان للرموز والعلامات التي توّلد دلالات عديدة عن أفكار وخلفيات ورغبات المشاركين في الطقس. إن بعض الشيعة البحرينين ممن يشاركون في هذه الطقوس، يشعرون أيضاً بأنهم جزء من المجتمع الشيعي بشكل عام. ولذلك فهم يرغبون في الحصول على دعم الشيعة الممارسين لطقوس زيارة الأربعين. لا سيما أن أغلب المشاركين في طقوس زيارة الأربعين يعتبرون أنفسهم شيعة أولاً قبل هويتهم القومية

أو الوطنية.[٣١]

وليس ببعيد عن ذلك المكان، كانت إحدى شركات الهاتف النقال تقدم خدمة الاتصال مجاناً، وقد كَتَبَت لافتة على إحدى خيمها المنصوبة في الطريق، تقول بأنها «ترحب بزوار الإمام الحسين». ومع الاستمرار بالمشي قليلاً، يَظهر أحدهم واقفاً في منتصف الطريق فجأة، يوزع بعض الكتب الصغيرة و النشرات الورقية، والتي هي عبارة عن نوع من الإرشادات الدينية وفتاوى حول مسائل تخص ما يمكن أن يصادفه الزائر أثناء المشي وكيفية التعامل معه، وكذلك ما يجب على الزائر ان يقرأه من أدعية في زيارة الأربعين. وعادة ما تكون هناك جهات معينة كثيرة، ومؤسسات دينية متنوعة، تطبع مثل هذه النشرات والكتب بعد ان تضع في مقدمتها صوراً لمرجعياتها الدينية، وأسماء المؤسسات الراعية لهذه الإصدارات.

إن المجاميع العقائدية تسعى إلى جعل مفكريها ومنظريها بمثابة الحلول المثالية القادرة على صياغة كينونة المجموعة ومستقبلها

وتعتبر هذه المجموعات بمثابة نوع من أنواع المجاميع العقائدية ideological communitas التي تمارس نشاطاً مكثفاً خلال زيارة الأربعين. وهذه المجاميع المثالية أو الطوباوية (utopian)، بحسب تعبير فيكتور تيرنر، تسعى إلى جعل مفكريها ومنظريها بمثابة الحلول المثالية القادرة على صياغة كينونة المجموعة ومستقبلها. حيث يسعى أتباع بعض رجال الدين، إلى ترسيخ أفكار مرجعهم أومفكرهم وتعميمها بصورة واسعة بين الآخرين، وكذلك التأكيد على دور مرجع ما في قدرته على التصدى وإستنباط الحلول لمختلف المخاطر الدينية والدنيوية التي قد يتعرض لها أفراد المجموعة. كما يسعى هؤلاء الأتباع، إلى مد جسور قوية من العلاقة بين مرجعياتهم الدينية والفكرية، وبين بقية المشاركين في الطقوس، والتركيز على إظهار شعبية هؤلاء المراجع وقوة تأثيرهم، وهم يمارسون نفس الطقوس التي يمارسها المشاركون. كما تصبح صور هؤلاء المراجع والمفكرين، وأسمائهم وكتبهم قادرة على لفت انتباه العديد من المشاركين في طقوس رحلة المشي، وذلك بفضل التكرار، مما يؤدي في النهاية إلى إنجذاب العديد من المشاركين إلى هذه الأفكار ومن ثم تبنيها مستقبلاً.

كانت أعداد النساء المشاركات في رحلة المشي أعداداً كبيرة، بل تفوق أعداد الرجال المشاركين في بعض الأوقات. وأغلب هؤلاء النساء الماشيات في هذا الطريق كن بصحبة عوائلهن، بينما اكتفى بعضهن برفقة مشتركة مع مجموعة من نساء أخريات يتعاونَّ فيما بينهن على رعاية أطفالهن والتناوب على حمل حقائبهنّ ومتاعهنّ. وغالباً ما تتوقف النساء كثيراً بالقرب من مشاهد التشابيه، كما يقمن بالوقوف أمام صورة أو تمثال حصان الحسين الأبيض الملطَّخ باللون الأحمر فيقمن

بمسح أيديهن على هذا الحصان. معتقدات بأن هذه التماثيل والرسوم ما هي إلا وسائل اتصال بأصحابها الحقيقيين، وإنها قادرة في ذات الوقت على إيصال مطالبهن وتحقيق أمنياتهن المختلفة.

ويحظى نموذج عبد الله الرضيع (ابن الحسين) المذبوح في سريره، وحصان الحسين المبقع بالدم، على الجانب الأكبر من اهتمام النساء الماشيات، فيطلن من الوقوف كثيراً أمام هذين النموذجين، بينما يبدأ عدد منهن بالبكاء واستذكار أحبتهن وذويهنّ، لا سيما ممن تعرضوا للاختطاف أو التفجير على يد الإرهابيين الذين يمثلون، بحسب اعتقاد هؤلاء النسوة، امتداداً لأعداء الحسين ومحبيه.

كانت أعداد النساء المشاركات في رحلة المشي أعداداً كبيرة، بل تفوق أعداد الرجال المشاركين في بعض الأوقات

وكان طريق المشي زاخراً بالنساء الثكالى اللواتي فقدن أحبتهن في حوادث شتى. وقد إلتقيت شخصياً ببعض هؤلاء النسوة اللواتي لخصن سبب رغبتهن بالمشي إلى كربلاء بسببين. أولاً المشاركة في هذه المناسبة كونها التزاماً دينياً مهماً، وثانياً من أجل حصولهن على بعض السلوى والعزاء لفراق أبنائهن أو أحبائهن ممن خطفه الموت. وكنّ غالباً ما يجدن شبيهات لهن في طريق الرحلة، من النساء اللواتي فقدن أعزائهن، فيتسلين ببثّ شكواهن بينهن، والحديث عن أحزانهن وحدادهن، الأمر الذي يساعدهن كثيراً على تحسين حالتهن النفسية، وتخفيف حالة الحزن الشديد التي يواجهنها في حياتهن اليومية المعتادة.

كنَّا كلَّما تقدمنا أكثر في الطريق المؤدي إلى كربلاء، كلَّما قلَّت المدن المأهولة وازدادت أعداد مواكب الخدمة الحسينية في العراء. وتُقدِّم أعداد كبيرة من مواكب الخدمة الحسينية خدماتها في هذا الطريق، وكذلك بقية الطرق الأخرى. وتقوم (المواكب) باستحصال الموافقات الرسمية من الجهات المختصة، وذلك بتسجيل أسمائها وأماكن ممارستها للخدمة لدى (قسم الشعائر والمواكب والهيئات الحسينية في العراق والعالم الإسلامي)، وذلك منذ اليوم الخامس والعشرين من المحرم وحتى العاشر من شهر صفر. وقد بلغت أعداد المواكب المسجلة لهذا العام بحدود ١٨,٠٠٠ الف موكب في جميع أنحاء العراق[٣٢].

وتختلف المواكب الخدمية فيما بينها بحسب طبيعة الخدمة التي تقدمها للزوار. وتركز أغلب المواكب على تقديم خدمة الطعام والشراب للمشاركين في طقوس الزيارة على مدار اليوم وبدون توقف. وعادة ما يتم تنسيق العمل بين المواكب القريبة من بعض، وذلك من أجل تنظيم نوع خدماتها المقدمة، وكذلك تنظيم نوع

وأوقات تقديم وجبات الطعام للزائرين، من أجل تقديم خدماتهم بصورة أفضل، ومنعاً لتكرار نوع الخدمة أو الطعام.

ويتفنن أصحاب هذه المواكب في تقديم مختلف أنواع الطعام اللذيذ، الذي يثير شهية الزوار وبالتالي يجذب عدداً أكثر من (ضيوف الحسين). وعادة ما يقف أصحاب المواكب في منتصف الطريق، ويطلبون من المشاية بطرق غاية في التواضع، أن يتوجهوا نحو موكبهم لأجل الاستراحة وتناول الطعام والشراب. ويحمل بعض أفراد المواكب في أوقات متفرقة من النهار عدداً من أطباق الطعام، يوزعونها على المشاية الذين لا يرغبون في التوقف، وكذلك توزيع قطع الحلوى على الأطفال وتقديم قناني الماء وبقية المشروبات الأخرى. ويخاطِب أفراد المواكب المشاية بكلمة تفضل يا (زاير) للمذكر ويا (زايرة) للمؤنث، وهي تسمية تطلق عادة على من يزورون المراقد المقدسة، كما يمكن المناداة بها على كل من يشترك في هذه الطقوس من دون الحاجة لمعرفة الأسم الحقيقي للأفراد، حيث يكون الجميع متساويين في الطقس، بغض النظر عن أسمائهم وجنسهم ومكانتهم الاجتماعية. إن جميع المشتركين في هذا الطقس، يتم التعامل معهم من قبل الآخرين على إنهم ضيوف الحسين وزوّاره. (انظر صورة رقم ٣).

تحرص أغلب المواكب على توفير خدمة المعلومات والبحث عن المفقودين، لا سيما أن هناك أعداداً كثيرة من الأطفال الذين يصاحبون ذويهم، ثم ينفصلون عن أمهاتهم ويتيهون بسبب الزحام

وتقدم بعض مواكب الخدمة الحسينية خدمة المبيت، لاسيما في المناطق التي تمر على طريقها جموع الزوار القادمة من المدن البعيدة، حيث لا توجد خدمات فندقية على هذه الطرق. وتقدم المواكب خدمة المبيت بعدة أوجه، فبينما يُصطَحَب بعض المشاية لغرض المبيت في بعض منازل أفراد الموكب الذين يقدمون خدماتهم بالقرب من مناطقهم السكنية، فان أغلب المواكب الأخرى تنصب خياماً كبيرة لمبيت النساء، وأخرى لمبيت الرجال. كما تنتشر على الطريق بعض الحسينيات المشيدة حديثاً، والتي توَّفر المبيت وتقديم بعض الخدمات الأخرى كالطعام والشراب وغيرها. إن خدمة المبيت وإن كانت تُقدم بوسائل بسيطة غير أنها تلبّي احتياج الزوار بالكامل. إن النوم تحت سقف، والحصول على وسادة وغطاء وحماية ووجبة عشاء مع المشروبات المختلفة، وشاحنة كهربائية من أجل شحن هاتفك الخلوي، ومياه ساخنة لمن يريد الاغتسال، ثم إفطار ساخن مع الشاي والقهوة مجاناً، كل ذلك في طرق بلا فنادق، فإنه يمكن عدها نوع من الرفاهية وخدمة لا يمكن أن تقدر بثمن، لاسيما

في مناطق شبه زراعية أو خالية تماماً من وسائل الإعمار والأبنية السكنية، وفي أجواء باردة جداً.[٣٣]

وتحرص بعض المواكب على تقديم خدمات أخرى مختلفة لا تقف عند حد المبيت والطعام، إنما تقديم خدمات تلبي معظم إحتياجات الزوار المشاية، مثل توفير هواتف مجانية لغرض اتصالهم بذويهم، والخدمات الطبية وبعض أنواع العلاج الطبيعي والمساج، وغيرها من الخدمات النوعية والخاصة جدا. فقد وضع أحد المواكب لافتة عريضة مكتوب عليها «موكب قطيع الكفين: إسكافي، خياطة الملابس، وتصليح الهاتف مجاناً»، وكانت مجموعة تقدر بعشرة شبان يجلسون على مكائن الخياطة وهم يصلحون أحذية الزوار وكذلك بعض الملابس. وليس ببعيد عنهم، جلس عدد من الشبان الآخرين وهم يفككون بعض الهواتف النقالة من أجل إصلاحها[٣٤].

وفي مكان أخر، وقفت أكثر من عشر نساء أمام تنانير الطين وهن يقمن بإعداد الخبز الحار، والذي يُقبل عليه الزوار بشكل كبير لمنظره ورائحته المميزة أثناء خروجه من التنور مباشرة. وقد كان بعض هؤلاء النسوة يمارسن عملية الخبز منذ أسبوع تقريباً وبنفس المكان، كمشاركة تطوعية منهن في هذه الطقوس. كذلك تحرص أغلب المواكب على توفير خدمة المعلومات والبحث عن المفقودين، لا سيما أن هناك أعداداً كثيرة من الأطفال الذين يصاحبون ذويهم، ثم ينفصلون عن أمهاتهم ويتيهون بسبب الزحام، وكذلك بسبب أن أغلب المشاركات يرتدين عباءة تقليدية سوداء فوق ملابسهن، مما يجعل مظهرهن الخارجي متشابه

صورة رقم ٣
مواكب الخدمة الحسينية تعد الطعام للزوار المشاية في الطريق بين النجف وكربلاء

تقريباً، فيسير الأطفال بقرب بعضهن بالخطأ ظانين أنهم يسيرون بقرب أمهاتهم. وعادة ما تكون أعمدة الكهرباء المرقمة هي نقطة الدلالة الأهم، وأحياناً الوحيدة، التي يستخدمها جميع المشاية والمواكب كنقطة دلالالة على هذا الطريق، حيث يتم العثور على المفقودين أو المفقودات، وكذلك الحصول على بعض المعلومات الضرورية.

وتلعب المواكب الخدمية دوراً هاماً في طقوس الأربعين باعتبارها تمثل نوعاً من المجاميع المعيارية normative communitas بحسب تسمية فيكتور تيرنر، وهي الجماعات التي تحاول تعبئة وتنظم نفسها ومواردها من أجل الحفاظ على وجودها ودورها الاجتماعي. وسواء كانت هذه المواكب مقامة من قبل العشائر أو الأحياء والمناطق السكنية أو بعض المجاميع الأخرى، فإنها جميعاً تسعى إلى ممارسة وتبني بعض أدوار السيطرة الاجتماعية. إن العشائر والأحياء السكنية تسعى إلى تأسيس وجودها الاجتماعي ودعمه من خلال تقوية علاقتها بأفرادها من جانب، وخلق وتفعيل روابط اجتماعية مع الزوار من جانب آخر. كما أن هذا النوع من المجاميع المعيارية، عادةً ما يحوز على إعجاب الآخرين بسبب أهمية مشاركتهم وحجمها، والدور الذي يلعبونه في محيطهم المحلي.

وبعد تزايد العمليات الإرهابية التي طالت العراقيين المشاركين في الطقوس الشيعية المختلفة، إضافة إلى اضطراب الوضع الأمني والسياسي العراقي المستمر، أصبح من المتعذر ممارسة هذه الطقوس دون أن يكون هناك دور حكومي وآخر للمؤسسة الدينية. لذلك أصبح دور الحكومة في هذه الطقوس مقتصراً على الحماية، بينما كان دورسلطة التنظيم والإشراف من قبل مؤسسة دينية تسمى «قسم الشعائر والمواكب والهيئات الحسينية في العراق والعالم الإسلامي

يمارس المشاركون في طقوس زيارة الأربعين دوراً مهما في تنظيم أنفسهم، من دون أن يعولوا كثيراً على الدور الحكومي، سواء في مجال التنظيم أو الخدمات المختلفة. وغالبا ما ينجحون في تنظيم هذ الزيارة بسبب الانضباط العالي والاستعداد الإيجابي الذي يتحلى به معظم المشاركين أثناء الزيارة. ومن بين أهم البراهين التي قدمتها جموع المشاركين في زيارة الأربعين على قدرتها في تنظيم نفسها بنفسها، هي زيارة الأربعين لعام ٢٠٠٣[٣٥]. فقد صادف موعد زيارة الأربعين في الثالث والعشرين من نيسان عام ٢٠٠٣، أي بعد أيام قليلة على سقوط نظام صدام حسين في التاسع من نيسان، حينها لم تكن هناك أي حكومة أو مؤسسة يمكن أن تنظم الزائرين المتوجهين مشياً الى كربلاء. لقد نجح ملايين الزوار في ممارسة طقوس المشي والزيارة من دون مساعدة الحكومة أو حتى المؤسسات الدينية.

وشكَّل هذا النجاح حافزاً للمشاركين في أن يستمروا بتجربتهم السنوية هذه، ودون انتظار أي تدخل حكومي أو دعم منها، على الرغم من أن الحكومة الحالية يشكل فيها الشيعة الأغلبية. إنها الرغبة الجماعية الشيعية في جعل هذه الطقوس تتمتع باستقلالية عن أي دور حكومي سواء الآن أو في المستقبل، وربما هذا الميل جاء بسبب ما عانوه لسنوات طويلة من منع وتضييق لممارساتهم وطقوسهم على يد الحكومات العراقية السابقة.

وبعد تزايد العمليات الإرهابية التي طالت العراقيين المشاركين في الطقوس الشيعية المختلفة، إضافة إلى اضطراب الوضع الأمني والسياسي العراقي المستمر، أصبح من المتعذر ممارسة هذه الطقوس دون أن يكون هناك دور حكومي وآخر للمؤسسة الدينية. لذلك أصبح دور الحكومة في هذه الطقوس مقتصراً على الحماية، بينما كان دور سلطة التنظيم والإشراف من قبل مؤسسة دينية تسمى «قسم الشعائر والمواكب والهيئات الحسينية في العراق والعالم الإسلامي». ويتم التنسيق بين هذين الطرفين من أجل المساعدة على إنجاح الزيارة من خلال تنظيم المشاركين في ممارسة هذه الطقوس، خصوصاً تنظيم عمل مجاميع الهيئات والمواكب الحسينية.

يمارس المشاركون في طقوس زيارة الأربعين دوراً مهما في تنظيم أنفسهم، من دون أن يعولوا كثيراً على الدور الحكومي، وغالبا ما ينجحون في تنظيم هذ الزيارة بسبب الانضباط العالي والاستعداد الإيجابي الذي يتحلى به معظم المشاركين أثناء الزيارة

ويقوم «قسم الشعائر والمواكب والهيئات الحسينية في العراق والعالم الإسلامي»، التابع للأمانتين العامتين للعتبتين الحسينية والعباسية، ومقره الرئيسي في مرقد العباس، بإصدار الموافقات للمواكب والهيئات المشاركة بزيارة الأربعين. وعادة ما يقدم طلباً خطياً من رئيس الموكب الذي يسمى (كفيل الموكب) بعد أن يُثبِّت له أسماء مساعدين اثنين في هذا الطلب، والذي يعنون إلى هذا القسم. ويشترط على كفيل الموكب أن يوقع على (تعهد خطي) لوزارة الداخلية، يتعهد فيه بالالتزام بالتعليمات والأوامر واللوائح الصادرة إليه من المديرية العامة للشرطة (الشؤون القانونية). ومن بين هذه الأوامر هو المحافظة على الأمن والنظام وعدم حمل الأسلحة، كذلك عدم استغلال المواكب لإلحاق أي ضرر في الجهات الرسمية وغير الرسمية، إضافة إلى إزالة محتويات المواكب بعد الانتهاء من مراسيم الزيارة، والمحافظة على البيئة.

وفي زيارة الأربعين لهذا العام (٢٠١٢)، أصدر قسم الشعائر والمواكب لائحة تحتوي على اثنين وعشرين فقرة بمثابة تعليمات خاصة بالزيارة، وهذه التعليمات

يجب العمل والتقيد بها من قبل جميع المشاركين في المواكب والهيئات. وتنص بعض هذه التعليمات على إقامة شعائر الصلاة في أوقاتها، عدم رفع صور الرموز الدينية أو الترويج لهم، وبعض التعليمات الخاصة بالمحافظة على سلامة وأمن الأماكن المقدسة والمشاركين. كذلك يقوم هذا القسم، بإصدار (منهج توقيتات) انطلاق مواكب العزاء المختلفة. وينظم هذا المنهج توقيتات انطلاق المواكب العزائية مثل (مواكب الضعن ومواكب الزنجيل)، و(مواكب اللطم) القادمة من مختلف مدن العراق، والطرق التي يجب ان تسلكها أثناء ممارسة فعالياتها، وكذلك المدة التي تستغرقها في ممارسة فعالياتها.

تعبّر الهوسة، بوصفها طقساً محلياً تمارسه العديد من المجاميع الشيعية، سواء في طقوس عاشوراء أو طقوس زيارة الأربعين، عن خلفية عشائرية ومناطقية، كما يعتبر هذا الطقس بمثابة انعكاس للقيم الاجتماعية السائدة وامتزاجها بالطقس الديني. وتبدو الأهمية الأساسية للهوسة ليس في تعبيرها عن الحالة العاطفية للأفراد فقط، وإنما لأنها طقس من تلك الطقوس التي يصفها دوركايم بأنها ترفع من حيوية المجتمع

وفي ظل غياب دور الحكومة الواضح في زيارة الأربعين والاكتفاء بالدور الأمني وتوفير بعض وسائل النقل، فإن بعض المؤسسات الدينية وشبه الحكومية تسعى إلى ممارسة دور أكبر في هذه الزيارة. إن قسم الشعائر والمواكب، يلعب دوراً أساسياً في تنظيم هذه الزيارة، خصوصاً في داخل مدينة كربلاء. وهذا القسم هو الجهة الوحيدة التي تمنح تصاريح المواكب المختلفة، وهو أيضاً من يتمتع بصلاحية إلغاء أي تصريح إذا ما خالف الموكب لأيّ من تعاليمه وشروطه. ويقوم هذا القسم بالتنسيق مع الجهات الأمنية بالسيطرة على جميع المواكب، حتى تلك التي تمارس عملها خارج مدينة كربلاء. هذا القسم وإن كان تحت السيطرة الحكومية، لكنه يتمتع باستقلالية كبيرة.

ويمول هذا القسم من قبل (ديوان الوقف الشيعي)، وهو الديوان المسؤول عن الجوامع والحسينيات والعتبات المقدسة الشيعية.[٣٦] كما يقوم هذا القسم بتجهيز المواكب الكربلائية التي تقدم خدماتها في مدينة كربلاء حصرياً، بعدد من التجهيزات المجانية، من بينها اللحم (ذبيحتان لكل موكب) والرز، وبعض المستلزمات الأخرى.[٣٧] وبذلك يكون أحد مصادر قوة كربلاء الأهم، بالإضافة إلى كونها حيزاً فضائياً مقدساً ومركزاً للزيارات الشيعية الأكبر، هو قوة دور هذا القسم وسيطرته الفعلية على إدارة الطقوس في عاشوراء والمحرم، ليس في محيط مدينة كربلاء فقط، وإنما في جميع محافظات ومدن العراق التي تمارس فيها هذه الطقوس.

٣. اليوم الثالث: الاربعاء ١٧ صفر ١٤٣٣ هجرية /١١ كانون الثاني ٢٠١٢ ميلادية

بالرغم من انطلاقنا في هذا اليوم مبكراً وقبل طلوع الشمس، كان الطريق ممتلئاً بالمشاية بصورة أكبر من اليومين السابقين. وتجمع على أحد جانبي الطريق عشرات الرجال على هيئة دائرة، بينما وقف في وسطها أحد الرجال وهو ينشد (الهوسات)، ومفردها (هوسة)، وهي عبارة عن قصائد خاصة بالقبائل العربية العراقية الجنوبية والفرات الأوسط، تركز على إبراز قيم البطولة والشجاعة والخصال الكريمة للقبيلة أو أحد أفرادها، وغالباً ما تستخدم الهوسة أثناء القتال أو رثاء أحد أفراد القبيلة أو في حالات شحن همم الرجال، من أجل تعبئتهم لأمر معين (انظر الصورة رقم ٤). وما أن ينتهي الشاعر من إنشاد قصيدته القصيرة حتى يبدأ المجتمعون حوله بترديد آخر بيت منها لعدة مرات وهم يرقصون بحركات معبرة، ويتحركون بشكل دائري لعدة مرات. وقد تناوب على إلقاء الهوسات ثلاثة من الشعراء، بينما كان المشاركون بحلقة الدوران والرقص، هم من الشباب وكبار السنّ أيضاً. أحد الشعراء ألقى هوسة كانت عبارة عن مديح لأصحاب وأفراد المواكب الحسينية لما قدموه لزوار الحسين من خدمة، كما خلصت القصيدة إلى أن الجائزة الأكبر التي سينالها أصحاب المواكب الحسينية، هي دعاء الزوار لهم حين يصلون مرقد الحسين:

اشرايك باليعازي حسين حتى الخيمته بناها
تفضل صاح للزوار على الشارع تلكّاها
عسى عامر مضيفك يلخدمت حسين بنهاره ولياليه
رغبنا انضيف هاي الدار جفنها بطيب مبنيه
الك يحلى الحجي ويحلى معانيه
ها خوتي ها...انزور واندعيله
الزاير كَال الزاير

تعبّر الهوسة، بوصفها طقساً محلياً تمارسه العديد من المجاميع الشيعية، سواء في طقوس عاشوراء أو طقوس زيارة الأربعين، عن خلفية عشائرية ومناطقية، كما يعتبر هذا الطقس بمثابة انعكاس للقيم الاجتماعية السائدة وامتزاجها بالطقس الديني. وتبدو الأهمية الأساسية للهوسة ليس في تعبيرها عن الحالة العاطفية للأفراد فقط، وإنما لأنها طقس من تلك الطقوس التي يصفها دوركايم بأنها ترفع من حيوية المجتمع.[٣٨] حيث يسعى هذا الطقس إلى توثيق علاقاتهم الاجتماعية عن طريق ربطهم بحالة عاطفية وفكرية مشتركة، مما يساهم هذا الربط في بناء مجتمعهم. إن الهوسة كونها إحدى الفعاليات التي يمارسها الشيعة العراقيون في طقوس عاشوراء والأربعين، تسعى إلى التعامل مع ما هو ديني والتفاعل معه، ثم إعادة إنتاجه بشكل ثقافي يحتفظ بروح وملامح محلية صرفة. كما أن الطقس الديني في النهاية يأخذ شكله وكثيراً من معانيه، من خلال تفاعله مع الخلفية الاجتماعية للمشاركين، ومن ثم إعادة إنتاج الطقس بما يجعله أعمق تعبيراً وأكثر قبولاً ومصداقية عند الممارسين.

كنا نسمع أحياناً أثناء رحلة المشي، بعض اللهجات العربية المختلفة، وفي أحيان أخرى، كانت تتناهى إلى أسماعنا بعض اللغات غير العربية. كما كانت هناك أعداد

مميـزة للشـيعة العراقيين مـن ذوي الأصـول التركمانية، وهم يحرصون على المشاركة في المشي إلى كربلاء مع بقية الزوار، حيث يسـكن عدد كبير منهم في مدن شـمال العـراق مثل الموصل وكركوك، ودهوك. كانوا يتحدثون مـع بعضهـم البعـض باللغـة التركمانية، بينمـا يتحدثون باللغـة العربية مع بقيـة الزوار.[٣٩] بعض هؤلاء المشـاية التركمان كانوا قد اسـتقلوا الباصات من مدنهم الشمالية إلـى أقصى الجنوب العراقي في مدينـة البصرة، وابتدأوا المشـي مـن هناك، بينما بـدأ بعضهم الآخر بالمشـي من مدينة النجـف. كما توجد كذلك بين المشـاية أعداد من الـزوار العراقيين الشـيعة مـن غير العرب، مثـل الأكراد، ومن غير العراقيين من إيـران والبحرين والهند، وكذلك بعـض الأفارقة مـن كينيا وتنزانيا وغيرها، يمشـون كلهم جنبـاً إلى جنب مع بقية المشـاية المتجهيـن إلى كربلاء، وهم يرتدون أزيائهم المحلية التقليدية.

منـذ انطلاقنا من النجف وحتى هذه اللحظة في اليوم الثالـث مـن رحلتنا، سـمعنا قصائـد وأناشـيد ولطميات كثيـرة تنبعـث مـن مكبـرات الصـوت وتتكر باسـتمرار، وفي بعض الأحيان، كانت هذه الأناشـيد تجعل المشاية (ودون قصد منهم) يسيرون معاً على إيقاع مشترك. ومن بين أكثر الأناشيد التي ترددت على مسامعنا أثناء الطريق، هي أنشودة (هلا بالزاير هلا)، وهي أنشودة تتحدث على لسـان أصحاب المواكب الخدميـة، وهـم يرجـون مـن الـزوار أن يتوقفـوا عنـد مواكبهم من أجل أن يخدمونهم بمحبة، لأنهم زوار حبيبهم الحسين:

هلا بالزاير هلا علي وياك
مشي جاي لكربلا علي وياك
اشرب ميه يزاير
بات يمنه وروح باجر
احنه خدام الحسين
وخدم للمشايه
خدم نتشرف نكَول

صورة رقم ٤
الزوار يمارسون فعالية (الهوسة) على جانب الطريق

حسين عدنه الغايه
ارتاح يمنه شويه زاير يمنه علكَ الرايه
للصبح كَاعد الخادم منه اشرب مايه
خادم الجاي مهيله
هله بالزاير هله
اشرب شويه يازاير
استريح الجاي خادر
هله بالزاير هله علي وياك

إن القصائد والأناشيد الحسينية تعبر عن رغبة أصحابها في مزج ما هو ديني بالثقافة المحلية من أجل إعادة صياغة العلاقة بين الطرفين. وعلى الرغم من أن رجال الدين يحرِّمون الغناء، ويحذرون من الإنشاد المقارب إلى أساليب الغناء المعروفة، يتم إنشاد عدد كبير من القصائد في هذه المناسبة وغيرها، وهي تسير على منوال الأغاني والإيقاعات المستخدمة في مناسبات الأفراح وأشباهها. وهذا أمر مرتبط بالذائقة الشعبية، لأن الإيقاع يعبر عن مزاج عازفيه وسامعيه أيضاً، وأن المناسبات الدينية، لا بد أن تحظى كذلك بإيقاعات مشهورة ومعروفة عند المشاركين. كذلك يتم تطويع مفردات القصائد بشكل كبير لتنسجم والثقافة الشعبية السائدة، فتصبح الأفكار الدينية المعقدة، مجرد أفكار بسيطة تعبر عنها كلمات مأخوذة من الحياة اليومية. ويمتاز عدد كبير من هذه الأناشيد بمفرداتها الشعرية البسيطة وإيقاعها الشعبي، مما يجعلها أشبه بأغنية مشهورة جماهيرياً، ولكنها تبقى مسموعة بشكل كبير حتى في أوساط المتدينين، لانها مرتبطة بدلالات دينية وعقائدية.

في أثناء الاستراحة أو عند تناول الطعام، كانت تسنح بعض الفرص للحديث مع الزوار عن ذكريات الزيارة والمشي، لا سيما تحت حكم نظام صدام حسين. كان بعض كبار السن يصرون على أنهم كانوا يواظبون على المشي سنوياً إلى كربلاء في زيارة الأربعين، حتى أثناء سنوات المنع والعقوبات القاسية التي كانت تتعامل بها السلطات الأمنية معهم، لاسيما في سنوات التسعينات، حيث يتعرض من يقوم بالمشي إلى الاعتقال والتعذيب قبل أن يتم سجنه بتهمة «ممارسة دينية خاطئة»[٤٠]. كانوا يتحدثون عن طرق بديلة لطرق المشي المعروفة، من أجل تفادي الوقوع في قبضة أفراد حزب البعث أو رجال الأمن الذين ينتشرون بالقرب من الطرقات التي يسلكها الزوار في رحلتهم إلى كربلاء. وفي الجانب المقابل كان رجال القرى والفلاحين يقومون بمساعدة المشاية أثناء سلوكهم الطرق البديلة ليلاً، وذلك بإيقاد بعض النيران في المزارع والحقول ليلاً، كعلامة ترشد الزوار إلى طريق كربلاء، وكذلك وضع بعض الماء والطعام بالقرب من هذه النيران ثم الاختفاء لتفادي الوقوع بأيدي الأجهزة الأمنية.

خان النص: المواجهة التأريخية بين المشاركين في زيارة الأربعين والقوات الامنية عام ١٩٧٧

كانت طقوس المشي في زيارة الأربعين تمارس بانتظام من قبل الزوار الذين كانوا يستخدمون الطرق المستخدمة الآن، من أجل بلوغ ضريح الحسين في

كربلاء، وذلك قبل سقوط نظام حكم صدام الحسين عام ٢٠٠٣. وعلى الرغم من أن هذه الأعداد لم تكن تشكل ظاهرة كبيرة كما هي عليه اليوم، كانت رحلة المشي في زيارة الأربعين تجتذب الزائرين عاماً بعد آخر. وقد ذكر لي أحد كبار السن المشاركين في موكب خدمي بالقرب من خان النص واسمه (حريز ساجت معيدي)، وهو من مواليد ١٩٢٧، بأنه كان يمارس الخدمة في موكب والده لزوار الأربعين على طريق النجف – كربلاء، وتحديداً في المكان الذي يقف فيه الآن في خان النص، حيث يقوم حالياً بتوزيع السكائر على المارين بقربه بعد أن أصبح لا يقوى على الحراك، وغير قادر على الرؤية بسبب فقدانه لبصره (انظر صورة رقم ٥). ومن بين أهم ما يتذكره هذا المشارك المخضرم في مواكب الخدمة الحسينية، أن الزوار كانوا يأتون مشياً أو على ظهور الخيل منذ أربعينيات القرن الماضي، وكانت أعدادهم تزداد سنة بعد أخرى، إلى أن حدث الصدام الشهير بين الزوار (المشاية) والقوات الحكومية المسلحة، في منتصف المسافة بين النجف وكربلاء، فيما يعرف ببلدة «خان النص»، وذلك عام ١٩٧٧.[٤١] وبعد هذه الأحداث الخطيرة والصدام الدامي، أصبح من المتعذر على الزوار سلوكهم طرق المشي المعتادة. وكان على الزوار الذين يرومون المشي إلى كربلاء، أن يسلكوا طرقاً أخرى بديلة وفرعية بين القرى والأراضي الزراعية، بعيداً عن الطريق العام وعيون القوات الأمنية التي تعتقل أي زائر يهم بالذهاب مشياً إلى كربلاء.

إن المواجهات التي حدثت أيام ٤-٧ شباط من عام ١٩٧٧ أثناء زيارة الأربعين كانت بمثابة المواجهة الأولى بين روح التحدي الجماعية للمشاركين الشيعة في زيارة الأربعين، وبين قوات الأمن الحكومية. لقد مارس نظام حزب البعث دوراً بارزاً في التضييق على ممارسي الطقوس الشيعية بعد مدة قليلة على استلامه للسلطة عام ١٩٦٨

إن المواجهات التي حدثت أيام ٤-٧ شباط من عام ١٩٧٧ أثناء زيارة الأربعين كانت بمثابة المواجهة الأولى بين روح التحدي الجماعية للمشاركين الشيعة في زيارة الأربعين، وبين قوات الأمن الحكومية. لقد مارس نظام حزب البعث دوراً بارزاً في التضييق على ممارسي الطقوس الشيعية بعد مدة قليلة على استلامه للسلطة عام ١٩٦٨. وفي أوائل سبعينيات القرن الماضي كانت الجهات الأمنية تفرض قيوداً مشددة على المشاركين وأصحاب المواكب، إضافة إلى استخدامها أجهزة التصوير والفيديو لمراقبة تحركات المشاركين في مراسيم الطقوس الشيعية المختلفة.[٤٢] وفي عام ١٩٧٧ منعت السلطات المحلية في كربلاء إقامة طقوس زيارة الأربعين في المحافظة، كما تم إلغاء جميع التراخيص التي عادة ما تمنح للمواكب الراغبة في المشاركة، هذا الإجراء قاد بالتالي إلى تعميق مظاهر التحدي لدى الممارسين،

الأمـر الـذي حفزهـم للمشـاركة بكثافة في مسـيرة المشـي من مدينـة النجف باتجاه مرقد الحسـين في كربلاء يوم ١٥ صفر، ٤- شباط ١٩٧٧ [٤٣]. وحدثت على خلفية هذا التحدي عدة اشتباكات بين القوات الأمنيـة والـزوار، فـي منتصف الطريق بيـن النجف وكربـلاء عند منطقة خـان النص، وذلك قبل أن تتم محاصرة الزوار من قبل القوات الحكومية في منطقة (خـان النخيلـة) علـى بعـد (١٥ كم) عـن كربلاء. وفـي يوم ٦ شـباط حوصـر الزوار بأرتـال الدبابات والمدرعـات وقوات الجيـش المدعومة بالطائرات التي اشـتركت فـي ضربهـم، وانتهت الاشـتباكات بسـقوط عدد مـن القتلـى والجرحى واعتقـال أكثر من ٣٠٫٠٠٠ من المشاركين، الذين أُعدم عدد منهم لاحقاً في محاكمات سريعة.[٤٤]

لقـد كانـت هـذه المواجهـة الداميـة بيـن زوار الأربعين والقوات الأمنية، بمثابة أكبر حركة تحدي ومقاومة شـعبية مارسها الشـيعة ضد نظام الحكم، حتـى ذلـك الوقـت. كمـا أن مـا حـدث فـي زيارة الأربعيـن عـام ١٩٧٧ جعـل طقوس المشـي فـي زيارة الأربعيـن لا تعبر عن المعانـي الدينية لممارسـيها فقط، بـل أصبحـت تعبر عن معان جديدة أخـرى أضافتها هذه الأحداث، من بينها التحدي والمواجهة وترسيخ الهوية الجماعية الشيعية، وذلك في مقابل البطش والقسوة الذي ميَّز سـلطة البعث في العراق. لقد أصبحت رحلة المشي لزيارة الأربعين أشـبه بالمواجة الكلية للشـيعة العراقيين مـع الطـرف الآخر المختلـف، والذي عزز مـن اختلافه

صورة رقم ٥: حريز ساجت معيدي أحد كبار السنّ المشاركين في تقديم الخدمات للزوار منذ أربعينيات القرن الماضي.

وعدائـه لهم بمواجهتهم والتضييق عليهم ومنعهم قسـراً من أداء طقوسـهم، التي تمثل خطوط اتصالهم الأساسية مـع رموزهـم المقدسـة. وبالتالـي أصبحـت ممارسـة طقوس المشي إلى كربلاء، بمثابة مسعى آخر للتعبير عن اتحاد وتمـازج المجموعات الشـيعية المحلية المختلفة من كافة أنحاء العراق، وظهورها بمظهر موحد ومشترك على صعيد الممارسة والتعبير والوعي.

وفي يوم ٦ شباط حوصر الزوار بأرتال الدبابات والمدرعات وقوات الجيش المدعومة بالطائرات التي اشتركت في ضربهم، وانتهت الاشتباكات بسقوط عدد من القتلى والجرحى واعتقال أكثر من ٣٠,٠٠٠ من المشاركين، الذين أُعدم عدد منهم لاحقاً في محاكمات سريعة

٤. اليوم الرابع: الخميس ١٨ صفر ١٤٣٣ هجرية / ١٢ كانون الثاني ٢٠١٢ ميلادية

وكما هو معتاد في الأيام السابقة، انطلقت جموع المشاية عند الصباح الباكر لتُكمل مسيرتها باتجاه كربلاء، بينما انبعثت من مكبرات الصوت أدعية الصباح، التي سرعان ما تحولت إلى ما يشبه الإيقاع، فيمشي وفقه الزوار بخطوات منتظمة. كانت ملامح الفرح والاطمئنان تبدو على أغلب المشاية، بسبب إحساسهم بالاقتراب من هدفهم الرئيسي، حيث سيصل أغلبهم إلى مرقد الحسين هذا اليوم. فيض من الطاقة الإيجابية التي يمكن ملاحظتها عند الجميع، سواء المشاية أو أصحاب المواكب الخدمية. كان أغلب المشاركين طوال الأيام الماضية يُعبِّرون عن أقصى حالاتهم الإيجابية، وذلك من خلال معاملة بعضهم بعضاً بصورة لم يألفوها في حياتهم الاعتيادية كما هو الحال عليه الآن. ومن بين العوامل التي ساعدتهم كثيراً في الوصول الى حالتهم هذه، وجود الرغبة الكبيرة للتعاون فيما بينهم، وتخطي الصعوبات ومواجهة التحديات بصورة مشتركة.

لقد ساعدت طقوس المشي هؤلاء الزوار على أن يظهروا بهيئة مجاميع وجودية عفوية Existential communitas، تشبه تلك المجاميع التي ميزها تيرنر Turner وناقشناها مبكراً في بداية هذا البحث. إنها مجاميع أصبحت تشعر بتشابهها وتجانسها وانتمائها المشترك. كما أن رحلة المشي في زيارة الأربعين باتت تشكل اختباراً مهماً للمواجهة بين الهويات المحلية الشيعية، التي ولدت نزعة مشتركة لديهم، ترى بأن جميع المشاركين في هذه الرحلة هم متشابهون حقاً ومتجانسون وغير خاضعين لأيّ سلطة بنيوية. كما أن هذه الرحلة أصبحت تعكس الروح الجماعية الشاملة لمختلف الطبقات الاجتماعية والانتماءات المحلية. إن المكانة الاجتماعية أصبحت مكانة واحدة لجميع المشاركين، فكل فرد منهم هو «زاير» أو «زايره»، ولا يختلف عن غيره من الزوار المشاركين في الطقس. كذلك انحسرت عنهم أسباب الخلاف أو التنافس مع الآخرين، فقد وفر الطقس فرصة تحررهم من معظم اهتماماتهم المادية اليومية، وأصبح اهتمامهم منصباً حول فرصة حصولهم على حالة الاتصال برموزهم الأساسية المقدسة، والاقتراب من حالة التجلي مع هذه الرموز القادرة على إرضائهم دون تمييز بين أحد وآخر.

أصبحت الرغبة في الوصول إلى كربلاء ورؤية قبة ضريح الحسين هي المطلب الأول لدى المشاية، وكلما تقدموا بالسير خطوات أكثر، ازدادت سرعتهم وعلا نشاطهم وغابت عنهم علامات التعب المعتاد. كانت إحدى علامات الطريق تشير إلى أن المسافة المتبقية

لمرقد الحسين هي (٦٠٠٠ متر)، غير أننا سرنا لساعات أخرى بسبب الزحام، قبل أن نجد علامة ثانية تقول إن المرقد يبعد (٣٠٠٠ متر). لقد كانت المسافة تُحسب بالكيلومتر طيلة الأيام الأربعة الماضية، أما الآن فإنها صارت تقاس بالأمتار فقط. عبرت مشاعر المشاركين عن مزيج من الفرح والحزن معاً، وأجهش العديد من المشاية بالبكاء، ثم قاموا بضرب صدورهم بحماس وهم يرددون إحدى القصائد الحماسية التي تقول:

حسين أبا عبد الله
حبك سرى بدمانا
جيناك يا مولانا
زوارك اتلكَانا
بالحشر لا تنسانا
زوارك وتدرينا
الخوف ميمر بينا
ما نرد يا والينا
لو كَطعوا رجلينا
كَبرك زحف نتعناه

لقد ساعدت طقوس المشي هؤلاء الزوار على أن يظهروا بهيئة مجاميع وجودية عفوية Existential communitas، تشبه تلك المجاميع التي ميزها تيرنر Turner وناقشناها مبكراً في بداية هذا البحث. إنها مجاميع أصبحت تشعر بتشابهها وتجانسها وانتمائها المشترك

حسين أبا عبد الله

صار الوقت منتصف النهار تقريباً، فتوقفت جميع مكبرات الصوت عن إطلاق الأناشيد واللطميات، وبدأت تبث حديثاً موحداً عن الصلاة وأهميتها. كانت موعظة الصلاة وآذان صلاة الظهر يأتيان من محطة إذاعة كربلاء التابعة للعتبة الحسينية. لقد كان التركيز واضحاً وكبيراً على ضرورة إحياء شعائر الصلاة، والتأكيد على إقامتها في وقتها، ليس بالقرب من مرقد الحسين فقط، وإنما على طول طريق المشي، كما علقت في الشوارع العديد من اللافتات التي كتبت عليها عبارات تؤكد على أهمية الصلاة وأولويتها عن غيرها من الطقوس الأخرى.

وفي وسط الشارع المؤدي إلى مرقد الحسين، وقف أحد الأشخاص مُرتدياً ثياباً سوداً ملطخة ببقع الطين، ويحمل بيده صفيحة معدنية مملؤة بالطين، فيقوم بوضع بعض منه على المارة. ويسمى هذا الطين (تربة الحسين)، ويعتقد بأنه يأخذ من نفس المكان الذي قتل فيه الحسين في معركة كربلاء. كان عدد كبير من الزوار يقف بالقرب من حامل الصفيحة، فيقوم هذا الأخير بوضع شيء من الطين على رؤوسهم ووجوههم وملابسهم، إذ يعتقد هؤلاء بأن لهم في تربة الحسين دواء وشفاء وبركة. وكلما تقدمنا أكثر، كان عدد الذين يضعون الطين على وجوههم وملابسهم في ازدياد (انظر الصورة رقم ٦).

ويباع في الدكاكين والمتاجر الصغيرة المنتشرة على جانبي الطريق، العديد من القطع الطينية الجافة من تربة الحسين، وهي ذات

أشكال هندسية مختلفة فمنها الدائرية والمستطيلة والمضلعة وغيرها من الأشكال الأخرى. و يُستخدم هذا النوع من تربة الحسين كمكان يسجد عليه المصلون الشيعة في صلاتهم اليومية. ويعتقد بعض الشيعة، بأن

صورة رقم ٦
أحد الأشخاص يقوم بوضع تربة الحسين على الزوار

تربة الحسين تحمل صفات مقدسة، لأنها ذات منشأ مقدس، وتأخذ من نفس المكان الذي استشهد ودفن فيه الإمام الحسين. ويمكن اعتبار تربة الحسين، سواء الطين الذي يضعه الزوار على أجسادهم أو التربة المستخدمة في الصلاة، هي بمثابة واسطة اتصال رمزية بين الممارسين الشيعة وبين رموزهم الأساسية المقدسة، إذ يعتقدون بأن لهذه التربة بعض الكرامات الخاصة، والقدرة على إحداث عدد من التغييرات الإيجابية على حاضرهم ومستقبلهم أيضاً.

كنا قريبين من مرقد الحسين، نشاهد من بعيد منظر حشود الزوار المتجمعة أمام نقاط التفتيش القريبة من مرقد الحسين، وهو ما ينبئ بصعوبة الحركة لقطع المسافة القصيرة المتبقية. وما أن واصلنا سيرنا حتى رأينا أحد الأشخاص يقف بالقرب من كرسي متحرك للمعاقين، وهو ينادي من مكبر صوت يحمله بيده، إن كان أحد يود أن يحصل على توصيلة مجاناً حتى نقطة التفتيش القادمة. كان هذا الشخص يدعى (أبو محمد)، وبالرغم من مضي أكثر من سبع سنوات على زواجه فما زال بلا أولاد. إنه في مكانه هذا منذ أكثر من عشرة أيام (كما أخبرني هو بذلك)، يقوم بمساعدة الزوار منذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل، وهو يطمع في أن يباركه الحسين، عسى أن يساعده ذلك على إنجاب الأولاد.

بعد دقائق كنا جميعاً نقف أمام قبة الحسين وهي تطالعنا بألوانها الذهبية. وكان كل زائر يرى قبة مرقد الحسين، يقف باحترام وخشوع ثم يرفع يده إلى الأعلى، ملوحاً باتجاه القبة وموجهاً تحية للحسين «السلام عليك يا أبا عبد الله» ، وكأنه يقف فعلاً أمام الحسين

كنا قريبين من مرقد الحسين، نشاهد من بعيد منظر حشود الزوار المتجمعة أمام نقاط التفتيش القريبة من مرقد الحسين، وهو ما ينبئ بصعوبة الحركة لقطع المسافة القصيرة المتبقية. وما أن واصلنا سيرنا حتى رأينا أحد الأشخاص يقف بالقرب من كرسي متحرك للمعاقين، وهو ينادي من مكبر صوت يحمله بيده، إن كان أحد يود أن يحصل على توصيلة مجاناً حتى نقطة التفتيش القادمة. كان هذا الشخص يدعى (أبو محمد)، وبالرغم من مضي أكثر من سبع سنوات على زواجه فما زال بلا أولاد. إنه في مكانه هذا منذ أكثر من عشرة أيام (كما أخبرني هو بذلك)، يقوم بمساعدة الزوار منذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل، وهو يطمع في أن يباركه الحسين، عسى أن يساعده ذلك على إنجاب الأولاد

ويتكلم إليه. إن رؤية قبة الحسين هي نقطة أولى مهمة في الاتصال بالرمز المقدس، وتحدث مزيجاً من مشاعر الفرح والرهبة عند الزوار، وكذلك تعمل على تهيئتهم لمرحلة الانفصال عن واقعهم قبل دخولهم إلى المرقد في طقس الزيارة.

وتمثل عَتَبَة الباب الخارجي للمرقد، نقطة التحول الأساسية التي سينتقل من خلالها المشاركون في طقس الزيارة، إلى نوع من حالة التجلي والمشاعر الروحية الغامضة والمتداخلة والمثيرة بسبب طقس الزيارة بصورة عامة، وكذلك بسبب الاقتراب مكانياً من مرقد الإمام الحسين. إنها حزمة كبيرة من المشاعر والرغبات، مشاعر التطهر من الخطايا والحصول على الغفران بمساعدة صاحب المكان المقدس، وكذلك رغبات الحصول على القوة والرزق والبركة وإصلاح ما تَعثَّر من حياة الزائرين.

سادساً: طقوس زيارة الأربعين في مدينة كربلاء

تبدأ طقوس زيارة الأربعين في مدينة كربلاء قبل خمسة أيام على موعد الزيارة في العشرين من صفر، وذلك باستعراض المواكب العزائية المختلفة. وأول مواكب العزاء المستعرضة في زيارة الأربعين، هو (موكب الضعن)، وهو نوع من التشابيه التي تصور عودة قافلة عائلة الحسين من رحلة أسرها في الشام ووصولها إلى كربلاء في يوم الأربعين. ويتألف هذا الموكب من مجموعتين رئيسيتين، الأولى هي حراس القافلة من الجيش الأموي وهم يرتدون الثياب ذات الألوان الحمر والصفر، ويحملون في أيديهم الرماح والسيوف. أما المجموعة الثانية فتتألف من عائلة الحسين بعد عودتها من الأسر، وتظم مجموعة الأطفال بملابسهم الخضر، وتحيط بهم جماعة الحرس الأموي. ثم يظهر خط طويل من الإبل وهي تحمل نساء عائلة الحسين داخل (الهودج)، وهو أشبه بصندوق مفتوح الجوانب يوفر الحماية من

أشعة الشمس الحارقة ومن الرمال، ويستخدم الهودج عادة لنقل النساء في الصحراء. وأمام مجموعة النساء يجلس أحد الرجال على بعير وهو يرتدي الثياب البيض الموشحة بالأخضر، دون أن يظهر وجهه، في إشارة إلى أنه الإمام علي زين العابدين بن الحسين الذي قاد عائلته في مسيرة عودة السبايا إلى ديارهم. ويرافق هذه المسيرة التاريخية أحد الرواديد وهو ينشد بعض المراثي الحزينة التي تسلط الضوء على فاجعة كربلاء، ويذكّر برحلة الآلام التي مرت بها عائلة الحسين في رحلة سبيها برفقة جنود الجيش الأموي.

وتسعى المراثي الحزينة التي ينشدها الرادود، على إعادة حضور الواقعة التأريخية وتجسيدها لدى المتفرجين، وكذلك نقلهم إلى حالة عاطفية تساعدهم على الاقتراب وتحسس فاجعة اللحظة التأريخية الحقيقية لعودة قافلة السبايا إلى كربلاء. كما يُعتبر دخول موكب السبايا إلى كربلاء هو علامة لبدء طقوس زيارة الأربعين. حيث يبدأ استعراض المواكب العزائية بحسب جدول محدد لكل منها، وتستمر هذه الفعاليات حتى موعد الزيارة الفعلي، أي بعد خمسة أيام من بدء فعالية موكب الضعن.

تبدأ طقوس زيارة الأربعين في مدينة كربلاء قبل خمسة أيام على موعد الزيارة في العشرين من صفر، وذلك باستعراض المواكب العزائية المختلفة. وأول مواكب العزاء المستعرضة في زيارة الأربعين، هو (موكب الضعن)، وهو نوع من التشابيه التي تصور عودة قافلة عائلة الحسين من رحلة أسرها في الشام ووصولها إلى كربلاء في يوم الأربعين

وتحمل بعض مواكب الضعن التي تستعرض خارج مدينة كربلاء، رأساً كبيراً مغطى بالدم مصنوعاً من مواد بلاستيكية، وموضوعاً في قفص زجاجي، للدلالة على عودة رأس الحسين مع قافلة السبايا لغرض دفنه مع جسده في كربلاء. ويقوم بعض المشاية من الرجال والنساء بالتوقف قريباً من القفص الزجاجي محاولين الإمساك بالرأس ومسحه بأيديهم، بينما تستمر بعض النسوة بالسير خلف الرأس وهن يَنْدِبْنَه ويَنُحْنَ عليه، وكأنهن يبكين على عزيز قد فارقهن للتو. غير أن قسم الشعائر والمواكب يمنع مواكب الضعن المستعرضة داخل مدينة كربلاء من حمل الرؤوس أو الجثث الصناعية في طقوس التشابيه، بسبب اعتقادهم من أن هذه الممارسة تسيء للشخصيات المقدسة، إضافة إلى كونها ممارسة غير مناسبة. ويسمح لمواكب الضعن ومواكب التشابيه الأخرى بالاستعراض داخل كربلاء ليوم واحد فقط، وهو يوم ١٦ صفر.

وتستعرض مواكب الزنجيل ومواكب اللطم القادمة من مختلف مدن العراق على مدى أربعة أيام وحتى يوم الزيارة في العشرين من صفر. وتمارس مواكب الزنجيل طقوس ضرب الظهر بواسطة الزنجيل في يومي السابع عشر

والثامن عشر من صفر بدءاً من الساعة السابعة صباحاً وحتى منتصف الليل، وذلك بحسب جدول التوقيتات المعد لها من قبل قسم الشعائر والمواكب.

وتغيب مواكب التطبير عن ممارسة طقوسها في زيارة الأربعين في مدينة كربلاء نهائياً، ولا يُسمح لأيّ أحد كان أن يمارس طقس التطبير في زيارة الأربعين. ويعزى السبب في غياب طقوس التطبير عن زيارة الأربعين إلى أن ممارسة هذه الطقوس هي خاصة فقط بيوم العاشر من المحرم «يوم الدم» بسبب ما يتمتع به اليوم العاشر من «روحانية مقدسة»، كما أن عدم التطبير في زيارة الأربعين هو جزء من العرف والتقليد الحسيني المتبع تأريخياً، ولذلك تمنع التعليمات الخاصة بزيارة الأربعين لسنة ١٤٣٣ هجرية، ممارسة التطبير بشكل كامل في كربلاء، ويتعرض المخالف إلى عقوبات أهمّها سحب إجازة موكبه وعدم السماح له بممارسة هذه الطقوس مستقبلاً في كربلاء.[٤٥]

وتمارس مواكب اللطم طقوسها بضرب الصدور على إيقاع قصائد الرثاء في كربلاء خلال يومي التاسع عشر والعشرين من صفر، وهي آخر الفعاليات التي مارستها المواكب العزائية في كربلاء قبل أداء طقس الزيارة لمرقد الحسين في يوم الأربعين. ولا تختلف الطقوس التي مارستها مواكب الزنجيل ومواكب اللطم في زيارة الأربعين عن تلك الطقوس التي قدمتها هذه المواكب في أيام عاشوراء، باستثناء أن حجم المشاركين في طقوس الأربعين كان أكبر بسبب حجم المشاركة الواسعة لكافة المواكب العزائية من جميع أنحاء العراق، وعدم الاقتصار على المواكب الكربلائية فقط كما هو حاصل في طقوس عاشوراء.

بدأت مراسيم طقوس الزيارة بعد منتصف النهار من يوم الأربعين، السبت ٢٠ صفر ١٤٣٣ هجرية/ المصادف ١٤-١-٢٠١٢ ميلادية. حيث قام الزائرون بالاقتراب من باب مرقد الحسين بشكل جماعات متتالية، يتوقفون قبل دخولهم وهم يلطمون صدورهم ويرددون إحدى المراثي الحسينية، ثم يرفعون أيديهم في نهاية اللطم ليؤدوا التحية إلى ضريح الحسين. بعدها يدخل الزوار إلى داخل المرقد ويقوموا بالطواف على قبر الحسين مع تأدية الصلاة، وقراءة بعض الأدعية الخاصة بزيارة الأربعين. ومثلما يحدث في زيارة عاشوراء أيضاً، تقدم بعض الكتب والأدبيات الشيعية وصفاً دقيقاً وخاصاً لكيفية ممارسة طقوس الزيارة، مثل طرق الاغتسال والتطهير الجسدي، والاستعداد الروحي، والسير إلى الضريح، وكيفية التعامل مع بقية الزوار، وكيفية الصلاة وقراءة الأدعية والتصرف بالقرب من قبرالحسين.

ولا تعتبر طقوس زيارة الأربعين طقوساً دينية واجتماعية فقط، بل ومناسبة اقتصادية جيدة لدى الكثير ممن يبحثون عن فرصة للعمل والحصول على بعض المكاسب التجارية الموسمية. فبعد الانتهاء من ممارسة طقوس زيارة الأربعين، حرص المشاركون على شراء الهدايا لأهلهم وأقاربهم، لا سيما الهدايا التي تعبر عن خصوصية المناسبة والمكان. وشهدت أسواق كربلاء، خصوصاً القريبة منها من مرقدي الحسين والعباس، إقبالاً

كبيراً من قبل المتبضعين الذين جعلوا هذه الأسواق في قمة موسمها التجاري السنوي. وهذا الأمر انطبق كذلك على الفنادق التي كانت مليئة بالنزلاء، وإن كانت مكتظة بهم في الأيام الاعتيادية من السنة. وقام بعض أصحاب المنازل القريبة من مرقدي الحسين والعباس، بتأجير منازلهم بأسعار مغرية إلى بعض العوائل الميسورة خلال مدة الزيارة، خصوصاً تلك العوائل القادمة من خارج العراق، مما يعود على أصحاب هذه المنازل بدخل إضافي جيد.

تمنع التعليمات الخاصة بزيارة الأربعين لسنة ١٤٣٣ هجرية، ممارسة التطبير بشكل كامل في كربلاء، ويتعرض المخالف إلى عقوبات أهمّها سحب إجازة موكبه وعدم السماح له بممارسة هذه الطقوس مستقبلاً في كربلاء

إن الرحلة الطويلة التي قطعها الزوار، وعاشوا من خلالها تجربة التحرر من الأشكال المادية لمظاهر حياتهم اليومية، قادتهم كذلك إلى حالة التحرر الروحي والاقتراب أكثر من أي وقت مضى من دواخلهم. هذه الحرية الجديدة التي اكتسبها الممارسون أثناء رحلة سيرهم المقدسة أصبحت أكثر وضوحاً عند المشاركين، لا سيما الآن وهم بالقرب من ضريح الحسين. أصبح الزائر مستعداً بصورة أكبر للالتحام برموزه المقدسة، تساعده بعض الرموز التي تحيط المكان وتسيطر على جميع جوانبه. فالزائر في هذه اللحظة، و بعد عناء الرحلة الطويلة وتركه لجميع الفعاليات الاعتيادية التي كان يمارسها في حياته اليومية السابقة، يشعر وكأنه قد تطهر تماماً من كافة آثامه، ولذلك فهو يشعر بأنه قادر على دخول الحيز المقدس والحصول على مكافأة الوصول إلى ضريح الإمام الحسين.

وربما تعتبر حالة التغيير التي حصل عليها المشاركون من بين أهم مكتسباتهم التي حققوها خلال رحلة المشي الطويلة. إنها رحلة تغيير ابتدأت من لحظة انطلاقهم، ثم تفاعلت أكثر جراء انتقالهم إلى أماكن جديدة وتحديهم للمخاطر والمصاعب والتعامل مع أناس جدد. كذلك وفرت هذه الرحلة لممارسيها وقتاً كافياً من مراجعة أنفسهم والتخلص من مشاكلهم السابقة التي كانت تشكل عنصراً حاسماً في إبقائهم ملتصقين داخل ذواتهم وأنواتهم الفردية الضيقة. وكأن الرحلة وفرت للمشاركين أيضاً فرصة التعرف على أنفسهم من جديد والتصالح مع محيطهم الذي كان غامضاً وغريباً وقلقاً، وذلك قبل أن يكتشفوا صورته الإيجابية الأخرى أثناء رحلة المشي إلى كربلاء، وهو ما يمكن أن نسميه بـ»رحلة التغيير الإيجابي».

سابعاً: الخاتمة

وتعتبر زيارة الأربعين مناسبة للمواجهة واللقاء بين المجاميع الشيعية العراقية المختلفة. فهي تشعرها باختفاء الحواجز الجغرافية بينها، وكذلك اختفاء الفوارق والحواجز الطبقية الاجتماعية. كما تعبر الزيارة بشكل واضح عن قوة نظام التكامل والتكافل الجماعي بين مختلف الجماعات الشيعية، وقدرة هذه الجماعات

على تعبئة وتنظيم نفسها بصورة مميزة ككتلة واحدة. كما ان الروح الجماعية السائدة في هذه الزيارة تعمق من قوة الأواصر الفكرية والاجتماعية المشتركة عند المشاركين، وبالتالي تدعم من فرص النجاح وبناء مجتمعهم بشكل متمايز عن بنية المجتمع الأساسية. بالإضافة إلى ذلك، تساعدهم رحلة المشي التي قاموا بها من مناطقهم الجغرافية إلى كربلاء، على إغناء تجاربهم المادية والروحية، وكذلك الالتقاء بأناس جدد من مناطق مختلفة، وبالتالي اكتسابهم خبرات وأفكار وتجارب جديدة تسهم في تحسين حالتهم مادياً وروحياً، كما تجلب لهم حالة من التغيير الإيجابي ينعكس على حياتهم اليومية بصورة كبيرة. وتبلور طقوس زيارة الأربعين أدوار الجماعات الشيعية المختلفة، باعتبار أن هذه الطقوس تمثل فرصة كبيرة لعرض الأيديولوجيات والأفكار وأدوار الهيمنة الدينية والاجتماعية، وكذلك عرض مختلف التصورات والآراء الأخرى. حيث تحرص بعض المجاميع الدينية على ترويج أفكارها في هذه المناسبة من أجل ترسيخ رؤى منتجيها، باعتبارها النموذج الممثل الأفضل الذي يمكن أن يصل بأفراد المجموعة إلى النجاح. بينما تحرص بعض المجاميع الأخرى في حصولها على بعض أدوار السيطرة، وذلك من خلال تمتين علاقاتها الاجتماعية فيما بينها، وكذلك مع بقية المشاركين في طقوس الزيارة.

وتعتبر زيارة الأربعين مناسبة للمواجهة واللقاء بين المجاميع الشيعية العراقية المختلفة. فهي تشعرها باختفاء الحواجز الجغرافية بينها، وكذلك اختفاء الفوارق والحواجز الطبقية الاجتماعية

تعكس طقوس زيارة الأربعين قوة بعض الأدوار التي يتمتع بها الحيز المكاني المقدس، وكذلك قوة تأثير المؤسسة الدينية. فتظهر كربلاء كحيز مكاني مقدس تسعى إليه المجاميع والأفراد على حد سواء، كونه يضمّ ضريح الإمام الحسين. ويسعى غالبية الشيعة إلى تفعيل تواصلهم المادي والروحي معه، فيصبح هدف الشيعة الأول، الوصول إلى مرقد الحسين وزيارته والتبرك به وتجديد العهد له باعتباره أحد أهم الرموز الأساسية المقدسة عندهم. كما يظهر جلياً دور المؤسسة الدينية الذي تمارسه بوضوح على المجاميع والأفراد المشاركين من خلال «قسم الشعائر والمواكب الحسينية في العراق والعالم الإسلامي». حيث تمتد ادوار السيطرة والتحكم التي تمارسها هذه المؤسسة إلى خارج حدود كربلاء، إلى بقية مدن العراق ومحافظاته المختلفة.

الهوامش

* فرج الحطّاب أستاذ مشارك في المدرسة الدولية للأدب والثقافات بجامعة ولاية أريزونا الأميركية، متخصّص في دراسة الأديان، لاسيما الطقوس الإسلامية، كتب في هذا الموضوع أطروحته «تطوّر طقوس العزاء عند شيعة العراق: طقوس عاشوراء وزيارة الأربعين». بدأ حياته أديباً وشاعراً، فنشر عدداً من الأعمال الأدبية والشعرية من بينها: يجرّ وقارَه بهدوء (شعر) ٢٠٠٢، هواء قلق (شعر) ١٩٩٩، القبور تهاجر أيضاً (رواية) ١٩٩٨، لصوص (شعر) ١٩٩٧.

١ هذا البحث في الأصل، هو نواة أحد فصول رسالتي لنيل درجة الماجستير من قسم الدراسات الدينية، جامعة أريزونا الأميركية ، ٢٠١٢. عنوان الرسالة The Development of Iraqi Shi'a Mourning Rituals in Modern Iraq: The 'Ashurā Rituals and Visitation of Al-Arb'ain

٢ زيارة الأربعين هو ذكرى إحياء عودة رأس الإمام الحسين من الشام ودفنه مع جسده بكربلاء وذلك في ٢٠ صفر بحسب التقويم الهجري.

3 See Faraj Hattab Hamdan.The Development of Iraqi Shi'a Mourning Rituals in Modern Iraq: The 'Ashurā Rituals and Visitation of Al-Arb'ain, (Ann Arbor: UMI, 2012) 121-174.

4 Sigmund Freud, On Murder, Mourning and Melancholia, Trans. Shaun Whiteside, (London: Penguin Classics, 2000) 203.

5 Freud 204.

6 Emile Durkheim, The Elementary Forms of the Religious Life, Trans. Joseph Ward Swain, (New York: Collier, 1961) 442-43.

7 Ibid.,447.

8 Arnold van Gennep, The Rites of Passage, Trans. Monika B. Vizedom and Gabrielle L. Caffee, (Chicago: Chicago UP 1960) 147.

9 Victor Turner, The Ritual Process: Structure and Anti-Structure, (New York: Gruyter Inc, 1969) 94-95.

10 Al-Ghazali, "The Remembrance of Death and the Afterlife," The Revival of the Religious Sciences, Trans. T.J. Winter, (Cambridge: Cambridge UP, 1989) 99,109,122.

١١ أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق محمد عبد القادر عطا، المجلد التاسع، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨) ٤٢١.

12 Al- Ghazali 111-12.

١٣ علي بن عمر الدارقطني، سنن الدارقطني، تحقيق عادل احمد عبد الموجود و علي محمد معوض، المجلد الثاني، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠١) ٥٣١.

14 Daniel Bates and Amal Rassam, Peoples and Cultures of the Middle East, (Prentice-Hall, Inc.: Englewood Cliffs, 1983) 76.

15 Arthur Goldschmidt Jr., A Concise History of the Middle East, (Westview Press, Inc.: Boulder, 1996) 214-15.

١٦ جعفر بن قولويه القمي، كامل الزيارات، (بيروت: مؤسسة الفكر الإسلامي، ٢٠١٢) ١٢٣.

١٧ القمي، المصدر السابق صفحة ٢٠٩-٢١٨.

١٨ إبراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٩)، ص٨٥-٨٦.

19 Faleh A. Jabar, The Shi'ite Movement in Iraq, (London: Saqi Books, 2003), p.185.

٢٠ علي بن موسى بن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، (طهران: دار الاسوة، ١٩٩٢) ٢٢٥.

٢١ الحسن بن علي العسكري، هو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الاثني عشرية، ولد في المدينة المنورة عام ٨٤٦ ميلادية وتوفي في سامراء سنة ٨٧٤.

٢٢ محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، تحقيق محمد جعفر شمس الدين، المجلد السادس، (بيروت: دار التعارف، ١٩٩٢) ٤٣.

23 Victor Turner, Dramas, Fields, and Metaphors, (New York: Cornell UP, 1975) 169.

24 Ibid.,169.

25 Ibid.,169.

٢٦ عثمان الغانمي» قائد عمليات الفرات الأوسط.» قناة الحرة عراق الفضائية، ١٤ كانون الثاني. ٢٠١٢ . العدد المعلن يشمل عدد الوافدين للزيارة الأربعينية من يوم ٦ صفر إلى يوم ٢٠ صفر.

٢٧ انظر جدول المسافات بين كربلاء وبقية المدن العراقية.

٢٨ الفراهيدي، الخليل بن احمد، كتاب العين، الجزء الثالث،

(بيروت، ٢٠٠٣) ٢٢٢.

29 Eric Davis, Memories of State: Politics, History, and Collective Identity in Modern Iraq, (London: University of California Press, 2005) 47.

٣٠ محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، الجزء السادس، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١) ٤١٦.

٣١ اغلب من التقيت بهم اثناء المشي كانوا يعرفون انفسهم على انهم شيعة مقدمين هذا التعريف على قوميتهم أو جنسيتهم.

٣٢ هاشم الموسوي، «رئيس قسم الشعائر والمواكب الحسينية في العراق والعالم الإسلامي»، لقاء خاص، العتبة العباسية، ٣ كانون الثاني ٢٠١٢.

٣٣ صادف وقت زيارة الأربعين لهذا العام في منتصف شهر كانون الثاني٢٠١٢، حيث الأجواء باردة جداً، لا سيما في المناطق غير المأهولة. وكان الزوار يقطعون عدة كيلومترات قبل أن تصادفهم إحدى القرى الصغيرة، ولذلك كان أغلب الزوار يتوقفون عن مواصلة المشي قبل غروب الشمس، ويندر أن يواصل أحد سيره في الليل.

٣٤ كنت قد تحدثت مع بعض الشباب الذين يصلحون الأحذية والملابس عن سبب اختيارهم لهذه الخدمة، فأجابوا بأنهم رأوا المشاية بحاجة لمثل هذه الخدمة، وليس هناك مواكب كثيرة تقدمها فتطوعوا لعمل ذلك بالرغم من أنهم لا يمتلكون خبرة مسبقة عن هذا العمل، ولكنهم كانوا حريصين على المشاركة وتقديم الخدمة لزوار الحسين.

35 Vali Nasr, The Shia Revival: How Conflicts within Islam Will Shape the Future, (New York: W.W. Norton & Company, 2006) p.18-19.

٣٦ هناك أيضاً ديوان مماثل ومخصص للمسلمين السنة يسمى (ديوان الوقف السني)، مسؤول عن المساجد والمراقد السنية في العراق.

٣٧ هاشم الموسوي، مصدر سابق.

38 Durkheim, p.447.

٣٩ سألت عدداً من الشيعة التركمان إن كانوا يشعرون باختلاف ما عن الآخرين في أثناء المشي إلى كربلاء، فكان جوابهم بعدم وجود أي اختلاف عن الآخرين، وأنهم يعرفون أنفسهم على أنهم شيعة في المقام الأول، ثم تركمان عراقيون في المقام الثاني.

٤٠ كان من بين المشاية الذين تحدثت إليهم شخص يدعى)أبو حسين(من مواليد ١٩٥٠، قام بالمشي من مدينته السماوة في زيارة الأربعين إلى كربلاء عام ١٩٩٦، إلا أن قوات الأمن ألقت عليه القبض ليلاً مع مجموعة من المشاية في كمين نصبته للزوار في منطقة القاسم وهم في طريقهم إلى كربلاء، وتم سجن (أبو حسين)، وكان مقتبس حكم المحكمه الصادر ضده يشير إلى أن جريمته هي (ممارسة دينية خاطئة)، وحكم عليه بالسجن لاثني عشر شهراً، كونه قام بهذه الممارسة الدينية الخاطئة وأضيف على الحكم شهر آخر لأنه كان يمسك بعلم أخضر لحظة إلقاء القبض عليه.

٤١ حريز ساجت معيدي، لقاء خاص، ١١ كانون الثاني. ٢٠١٢. هو من مواليد ١٩٢٧، كان يشارك في أحد المواكب الخدمية في خان النص، حيث يجلس على كرسيه بالقرب من الطريق وهو يحمل في يده علبة سكائر مادا إياها باتجاه الزوار، وهذه هي الخدمة التي يقدر عليها الآن، بعد أن فقد بصره قبل عدة سنوات.

42 Faleh A. Jabar, p.198.

43 Ibid., 198.

٤٤ علي المؤمن، سنوات الجمر، ط٣.، (بيروت: المركز الإسلامي المعاصر،٢٠٠٤) ١٦٨.

٤٥ هاشم الموسوي، مصدر سابق.